

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_191014

UNIVERSAL
LIBRARY

مختارة العرب في الاندلس

رسائل تاريخية في قالب فني إلى يد

وضعها
الكاتب المحدث

السيد عبد الرحمن البرقوقي

صاحب مجلة البيان

على لسان رحالة مصري رحل به الى الاندلس في منتصف القرن الرابع
الهجري ونحله هذه الرسائل التي اودعها علم الاندلس كله - في
دروس من البلاغة موزقة مشرق تشرق نضير . ولون
من البيان يكاد لحلاوته يؤكل بالضمير

حقوق الطبع محفوظة

١٩٢٣ - ١٣٤١

تطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية بشارع عابدين بحارة فايد عمرة ٣ بمصر

اهداء الكتاب

إلى روح أستاذى الأمام الشيخ محمد عبده - إلى
الرجل العظيم الذى لم تقع عينى على مثله راحة عقل وسجاجة
مُخَلِّق وعبقريّة ذهن وسموّ نفس وعظمة رُوح وهمة
تناطح النجوم . وكرماً يشامخ الغيوم . وأدباً إلهياً من
الطراز الأول حتى لا كأنما نشأ في حضانة الله - إلى الرجل
كل الرجل الذى يحب معالي الأمور ولا يحب سفسافها
تلذّله المروءة وهي تؤذى ومن يعشق يلذّله الغرام
إلى الرجل الذى لم يفزع إليه فازع ولم يستصرخه
مستصرخ إلا كان الصراخ له، انجاز ما أمّله - إلى الرجل
الذى لو مد الله فى أجله . وبقى إلى أن رأى ثمار غرسه
ونتاج عمله . لكان الأديب اليوم شأن غير هذا الشأن ، وحال
غير تلك الحال ، لأنه عظيم فهو يحب كل عظيم ويؤمّده ويؤشبهه
وقدا ، ولا يحقد ولا يحسد لأن رئيس القوم لا يحمل الحقد
ذهب الذين يماشى فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلبد الجرب
حالم أشبهوا القروء ولكن خالفوها فى خفة الأرواح
لهم حلال حسن فهن بيض وأخلاق ممجّن فهم سود

أنا في أمة تداركها الله م غريب كصالح في نمود
إلى روح أستاذي الذي علمني ورَبِّي وأدبني فأحسن بحمد
الله تأديبي - فكنت خَرَّيجَه ولا نخر ، وكنت غرس يديه
ونعمة عين . وكما أرسل الله إلى صَفِيَّه وخيرته من خلقه
سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وتسليماته عليه مـ لكن
كريمين سقطا عليه كسقوط الندى وهو يلعب مع اخوته
من الرضاعة خلف بيوت ظئره رضوان الله عليها .
فأضجماه فاستخرجا قلبه فشقاها فتناوشا منه علقه سوداء
ثم غسلا قلبه بثلجها السماوى حتى أنقياه ، وكان ذلك
كدرجة لمقام النبوة ومهمة الرسالة العظمى - أرسل الله
إلينا هذا الأمام ، وطلع علينا كما يطلع البدر في دجنات الظلام
ونحن في الأزهر نتعسف الطريق ، ونتقحم تلك الجرائم
فهدى من ضلالة ، وأنا من ظلمة ، وانتاشنا من مَضيق
ومُرتَظم ، وأقامنا على المناهج النيرة ، والمحاج الواضحة
وغسل عقولنا حتى أنقى أدرانها ، ثم فاض علينا فيض علمه وأدبه
فألى روح هذا الامام أهدى هذا الكتاب مـ

عبد الرحمن البرقوقي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مامراً ومهاباً

« أما بعد » فهذا كتاب وضعته قديماً وأسميته « حضارة العرب في الاندلس » . ولقد أشرب قاي منذ طراءة العمر وريعان الصبي وجن النشاط حب التاريخ الاسلامي عامة وتاريخ هذا الفرع الاندلسي منه خاصة . - فكان مما عنيت به فضل عناية ، وكان مما أولعت به الولوع كله ، النظر في تاريخ الاندلس وحضارة العرب بها منذ افتتاحهم اياها الى أن تأذن الله لهم ، وكتب عليهم الاسبانيون ، وكبح لهم الدهر وجهه ، وتقلصت ظلال تلك الحضارة بعد أن فاء بها الفبيء على شرق الارض وغربها . - وبلغ من همي بهذا التاريخ أني بعد أن استوعبت كل ما وصل الينامن تأليف العرب ذهبت أتلمس ما كتبه مؤرخو الغرب ومستشرقوه على ذلك المصر حتى اقتنيت أمهات أسفارهم وعهدت الي كثير من أصدقائي الذين يحسنون الفرنسية والانكليزية أن ينقلوا الي كل ما يتصل بغرضي من مباحث هانك الكتب ، ومضيت في ذلك ومضوا فيه حتى استجمعت الكثير وما يزيد على الكثير . ثم

خطر الدهر من خطراته ونشأت ظروف أواخر سنة ١٩١٠ ميلادية
 أى قبيل اخراج « البيان » اضطرتني أن أزايل القاهرة وأقيم
 في بلدى - مسقط الراس . ومكان الغراس . فأفسح لى ذلك فى
 الوقت ، ومد لى فى النظر ، وبسط فى مطارح التأمل ، وأنى
 لا تقرى يوما تاريخ أبى النداء اذ صدف أن أخذت عيني هذا الخبر
 الذى لاحفل له ، والذى يقتحمه فى العادة النظر ، ولا يكاد يتلفت
 اليه ، أو يتوقف عليه ، وهو ما رواه من « أنه فى سنة ٣٤٥
 هجرية عمل عبد الرحمن الناصر صاحب الاندلس مركبا كبيرا وحشد
 فيه كثيرا من بضائع الاندلس وأرسله الى بلاد المشرق لتباع
 هذه البضائع هناك وتستبدل منها بضائع مشرقية » . ففتحت على
 هذه العبارة أبوابا من وراء أبواب ، وامتدت الكلمة فى نفسي
 حتى خرج من حروفها كتاب ، وألهمت أن أضع ما جمعت من
 علم الاندلس كله فى صدر رحالة مصرى يقوم من الاسكندرية
 وافداً الى الاندلس فى مركب الناصر هذا - فهو يرى ويسمع
 ويقص ويدون ويصف ويستعين بما يعلمه وما يراه وما يفتق له
 الخاطر ويهيء الفكر - فى رسائل يضمها وصف تلك الحضارة
 على اختلاف ألوانها ، وشتى فنونها ، وصف مؤرخ أديب فيلسوف
 يرحل للتاريخ وفلسفته فيدرسه فى كتبه وفى مواضعه ورجاله

وأساببه وحوادثه ، وبذلك يستجمعه من أطرافه ، ويجويه من أكنافه ، وتم التقدير على أن أضع على لسان هذا الرحالة الذى ذهب الى الاندلس وأقام فيها زهاء عشرين عاما خمس رسائل يكون عنوان الاولى « من الاسكندرية الى المرية » والثانية « من المرية الى قرطبة » والثالثة « مقامي في قرطبة » والرابعة « العلوم والآداب والفنون فى الاندلس » والخامسة « تقويم الاندلس وتاريخها » ... وهو بديهي أنه لا يقدم على هذا العمل مقدم الا بعد أن يحيط بتاريخ هذا العصر علما ، ويقتله كله دراية وفهما ، فليس يكفيه أن يكون ملما بتاريخ الاندلس ، ولا بتاريخ الدول الاسلامية لهذا العهد ، بل لا بد مع ذلك من أن يكون واقفاً على تاريخ الامم الاخرى المعاصرة ، والتي لها علاقة بالدول الاسلامية اذ ذاك مثل الدولة الرومانية وما اليها . وكذلك درست تاريخ هذا العصر من جميع نواحيه . ثم وضعت يدي في هذا العمل ، وأخذت فى كتابة هذه الرسائل ومضيت لطيتى حتى اذا سرت شيئاً طراً عليّ ما أجاؤنى الى القاهرة وفي تلك الآونة طلع « البيان » وطفقت أنشر فيه نبذاً من هذا الكتاب . وكان المنتظر أن يكون « البيان » بحيث ينرى باتمام الكتاب ونشره كله بين صفحات هذه السنوات التى خلت ، ولكن جاء الامر

على سداد ما قيل : طلبت بك الكثير فازددت قلة : - فلقد استبدني
هذا البيان ، واستأثر علي بنفسي استئثاراً ، وتدفق في أذاته ،
وألح في سطواته ، حتى أنه بعد أن اتهم الوفراً أكلاً وشراباً ،
ألوى بنفسى (١) قلباً ولباً ، وتركنى لا أفكر الا فيه ولا أتشاغل
الا به .

فلو ان لى تسعين قلباً تشاغلت

جميعاً فلم يفرغ الى غيره قلب

وكذا مصير كل من يمتحن الادب فى الصحف وبخاصة اذا كان
هو صاحب تلك الصحيفة له غنمها وعليه غرمها ، ببلد سقط فيه
نجم الآداب الرفيعة وطاش سهمها ، وقدما قيل لحكيم ان فلانا
رجل عاقل فقال هل هو متزوج فقيل له نعم فقال : اذن ذهب
عقله ! وعلى هذا القياس لو قيل لى ان فلانا فيلسوف أو عالم أو
أديب لقلت هل هو صاحب مجلة فى مصر فاذا قيل نعم قلت اذن
ذهب والله فى الداهيين . فأنه اذا كان المتزوج يجد من هم واحدة
وما يكون منها ما لا يدعه لهم نفسه فيذهب بذلك عقله أو بعض
عقله فان صاحب المجلة يصيبه هم المئات الى الالف ممن يقرؤن
ولا يفون بحق ولا عهد فهو ينفق من نفسه وما أعده لنفسه

وهم يحقّقونه محقّقاً حتى ينقص بهم على زيادتهم ويقل على كثرتهم ولا يزال ذلك شأنهم وشأنه لا هو يتركهم وعليهم حقه ولا هم يدعون في غير هذه الحالة ، وبذلك يذهبون بفلسفته وعلمه وأدبه مذاهب العقم ، ويبلونه بالاغتمام ، ولا عقل مع غم ، ولا قلب مع هم فذهب اذن والله صاحب المجلة وكان من ضياع العقل في وزن من تزوج لا بزوجة واحدة بل بألف زوجة ..

«وبعد» فهذا هذا - وفي هذه الاونة - في هذه الفترة التي احتجب فيها البياض ، والتي وجدت فيها نفسى - جرى بيني وبين أحد أفاضلنا يوماً حديث أفضى الى ذكر هذا الكتاب . وأنست من هذا الفاضل رغبة حارة صادقة في تمامه ، وطبع ما تم منه الى الآن في الاقل على حدة ، فكان جواب الفعل أسبق من جواب القول ، وقدمت هاتين الرسالتين الى المطبعة على أن أردفهما قريباً ان شاء الله بالرسائل الثلاث الباقية . وهاتان الرسالتان يكادان يكونان كتاباً مستقلاً . يصح أن ينزلا من الرسائل التالية منزلة مدخل الكتاب من الكتاب .

والآن يجمل بنا أن نقدم بين يدي الناظر في كتابنا هذا تنبيهات يخلق به أن يلحظها ويتنبه عليها واليكها:

يلحظ قارئ هذه الرسائل في بعض المواطن شيئاً يشبه أن يكون حشواً أو زيادة أو فضولاً أو شططاً أو خروجاً عن الموضوع أو ما شئت منه. وذلك مثل كلامنا على الحمر « انظر صفحة ٧٨ » وكلامنا على حب الوطن « صفحة ١٢٠ » فليعلم القارئ أنا لو قصرنا كلامنا في هذه الرسائل على البحث التاريخي البحت دون تطرّبها مثل هذه المعاني الغضة اللينة المستطرفة التي تستروح إليها النفوس، وتريح على القارئ عازب نشاطه (١) - لجاءت كزة جافة ثقيلة مملة . وليس للكاتب اليوم في أي باب من أبواب العلم والادب منتهج عن أن يداور القارئ على انقراء ويراوغه (٢)، ويحتال بكل ضروب الحيل التي تغريه بالقرأة وتشوقه الى الاطلاع ما دامت الرؤس كأن بها خبالاً ، والنفوس كأن بها دائماً ملالا على أنه اذا كان الغرض الذي نترامي فيه (٣) بهذه الرسائل هو وصف حضارة العرب فلماذا لا نهتبل هذه الفرصة ونتصدي - ما وجدنا الى ذلك سبيلاً - لكل معنى من معاني هذه الحضارة ومبلغ ما وصل اليه العرب في هذا المعنى، ومن ثم لم نتعرض لمثل ما تعرضنا

(١) تريح ترجم وتعيد وعازب غائب (٢) داوره على كذا وراوغه أراداه عليه (٣) كقولهم اليوم نرمي اليه

عشنا ، وانما لنصف لك كل ألوان الحضارة العربية على اختلافها
أولا وبالذات ، ولننفي عن القارئ ما عساه يلم بساحته من
السأم والملال ثانيا وبالعرض

٢

قد يلح القارئ من أسلوب هذه الرسائل وطريقة الوصف
والتفكير فيها مسحة من روح جيلنا ، ويراها مصطبغة بصبغة عصرنا ،
وهذا وان لم يكن في مكننتنا اجتنابه لأننا ضرورة كوننا من
أبناء هذا الجيل وامتزاج روحه منا بالدم واللحم لا نستطيع
الخروج عن كيانتنا ، الا أنه مع ذلك نكاد نكون قد قصدنا
اليه قصداً لأنه يدخل في باب التطرية التي لا بد منها تقياً للملال
الذي قد يعرف القارئ اذا نحن توخينا أسلوب تلك العصور
توخيأ تاماً ، ولأنه لولا ذلك لما كان تمت فرق بين هذه الرحلة وبين
رحلة قديمة يضعها رحالة حقيقى في هاتيك العصور ، بيد أنا مع
ذلك قد احتفظنا جهد الاستطاعة باصطلاحات العرب في أسماء
الاعلام والبلدان والاقطار والممالك وما الى ذلك مع قرنها
باسماء التي تعرف بها اليوم اما في هامش الرسائل واما في صلبها
بين أقواس

٣

كل ما كان لغيرنا ونقلناه بلفظه أو بمعناه نهنا اليه في هامش الكتاب ومن ثم يكون كل ما لم ننبه الى مصدره فهو لنا معني ولفظاً، اللهم الاما تتمثل به من بيت مشهور أو مثل سائر أو أبيات قد عرف قائلها . على أننا اذا كنا في موضع تاريخي أو وصف جغرافي قد نهنا الى المصدر الذي اعتمدنا عليه ففي الغالب الكثير تكون العبارة لنا وانما الذي لغيرنا هو العصاراة التاريخية أو الجغرافية وما اليهما ، وقد نساهو عن التنبيه الى المصدر اما لاننا لم نقيم ما ننقل حين النقل فلم نهتمد الى موضعه بعد ذلك واما لان ما ننقله من غيرنا انما نقلناه بواسطة حافظتنا .

٤

قد تتمثل في بعض الاحايين ببيت أو أبيات تأخرت أوقات قائلها عن زمن الرحلة مثل تمثلنا بأبيات لابن خنواجه أو لابن حمد يس مثلاً ونحن فاننا لانرى بأساً في ذلك مادامت هاتيك الأزمان متقاربة متشاكلية وحسبنا التنبيه الى ذلك في هامش الكتاب

« أما بعد » فيرحم الله عمرو بن بحر اذ يقول : لا يزال المرء

في فسحة من عقله ما يقل شعراً أو يؤلف كتاباً - ويرحم الله القائل :
عرض بنات الصلب على الخطاب ، أهون من عرض بنات الصدر
على ذوى الألباب . فاذا كنت قد وفقت أو قاربت التوفيق في
هذا الكتاب والا خسي أنى لا آلو جهداً ولا أدخر وسعاً ، وأنى
أخلص النية وراقب الله في كل ما عمل ، على أنه لا كمال في الأرض
وانما الكمال لله وحده ، واليه سبحانه الرغبة في أن يحوط كل ما أعتمل
بكلاءته ، وأن ينشيه دائماً بالقبول انه مسميع الدعاء ؟

عبد الرحمن البرقوقي

رجاء

نرجو القارئ الكريم - ونلج في هذا الرجاء - أن يتناول فامه الآن ويصحح هذه الأغلاط المطبعية التي يراها ويرى صوابها في هذا الجدول قبل أن يمضي في قراءة الكتاب

صفحة سطر	خطأ	صواب
٩	رواه	رواة
١٨	هاروتُ ينفثُ	هاروتُ ينفثُ
١٥	« في بعض النسخ »	
٢١	كل صنما « في بعض النسخ »	كل ما صنما
٢٥	ان المسلمون	ان المسلمين
١	« في بعض النسخ »	
٣٩	وفي مدافعه	وفي مدافعة
٤١	وماليها	وما اليها
٤٣	خمس عشر	خمس عشرة
٤٥	الشأن	الشان
٤٩	للبيع	المبتاع

صفحة سطر	خطأ	صواب
٥٠ ١١	ايات	اياتا
٥١ ١٣	المحد	المجد
٥٧ ٣	ومدينة مسيني	وين مدينة مسيني
٥٧ ١٦	سيفه	سيصفه
٦١ ١٠	في الجزيرة	في الخريدة
٦١ ١٥	اما	أنا
٦٣ ١٢	منزله	متنزه
٦٦ ٦	ومتورقة	ومنورقة
٧١ ١١	أن المركب	أن هذا المركب
٧٦ ١٠	شأنا	شانا
٧٧ ٣	من المغضوب عليهم	إلى المغضوب عليهم
٧٨ ٧	لثلاث عشر	لثلاث عشرة
٨١ ١	اظنه	ما اظنه
٨٣ ٨	او تقطّع	أو تقطّع
٩٥ ٤	والنبات	والنبات

صفحة سطر	خطاً	صواب
١٠٦ ١٤	ابن اللبان	ابن اللبانة
١٠٩ ١٣	يمتازون	ينمازون
١١٠ ١٤	لقاء	تلقاء
١١٧ ٧	وتعقلت	وتعلقت
١١٩ ١٦	تذبيبه	تذبيمه
١٣٤ ٥	صلوات الله عليه	صلوات الله عليه اذيقول
١٣٧ ١٢	المرء	المرء
١٥٦ ٢	الطبيب	الطبيب
١٦٢ ٧	وينتقل من هذا العالم	وينتقل بالانسان من هذا العالم
١٦٤ ١٢	ماه	ماء
١٦٦ ٥	الاصطول	الأسطول
١٦٩ ٢	والقواخير	والقراخير
١٦٩ ٤	والشنديات	والشنديات
١٧٣ ٩	وبأبي عبلى	وبأبي علي
١٧٤ ٩	ماجنه	ماجنة

السُّبُلُ الثَّلَاثُ الْاَوَّلُ

سَبِيلُ اَسْكَنْدَرِيَّةَ إِلَى الْمَرْيَةِ

كان انفصالي عن الاسكندرية الوفود إلى الأندلس
ربسُحرة يوم من أيام سنة خمس وأربعين وثلثمائة من هجرة
المصطفى صلى الله عليه وسلم ، الموافقة سنة ست وخمسين
وتسعمائة لميلاد السيد المسيح صلوات الله عليه ، وذلك في
سفينة عدولية ^(١) لأمير المؤمنين بالأندلس عبد الرحمن

المريّة ويسمىها الافرج Almeria ثغر من ثغور اسبانيا
واقع على البحر الابيض المتوسط . وكانت زمن هذه الرحلة
مرمي للسفن القادمة من المشرق القاصدة الى القطر الاندلسي
(١) أى ضخمة من قول ظرفة بن العبد يصف السفينة

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدى
قال في اللسان : قال الاصمعي العدولي من السفن منسوب
الى قرية بالبحرين يقال لها عدولي ثم قال وقيل انما هي منسوبة
الى موضع كان يسمى عدولة نقول ولعل هذا هو الاقرب

الناصر ، لم تر قطّ عيني مثلها ، وكان عبد الرحمن فيما بلغني
مُولعاً بإنشاء السفن والأساطيل ، فأنشأ هذا المركب
الكبير الذي لم يُعمل مثله وسير فيه أمتعة وبضائع إلى بلاد
المشرق لتباع هناك وتستبدل بها بضائع من هاتيك البلاد
فر بكثير من ثغور البحر الشامي وكان آخر ما مرّ به
الاسكندرية . (١)

الى الصواب ولعل عدولة هذه هي أدولي وقد حزم بذلك
وبأن السفن العدولية منسوبة الى أدولي هذه استاذنا الدكتور
نالينو المحاضر كان بالجامعة المصرية قال البستاني في دائرة
معارفه : تحت كلمة « أدوليس أو أدولي » هي مدينة قديمة في
الحبشة في جون من البحر الاحمر على الشاطئ الغربي وتسمي
الآن زويلة وأركيكو وكانت في القرن السادس للميلاد ميناء
لاكوم

(١) جاء في كتب التاريخ عن هذا المركب وعن ولوع الناصر
بإنشاء المراكب والاساطيل ما لا يكاد ينحرف عنه كلامنا -
راجع تاريخ ابي الفداء وابن الاثير وابن خلدون

ولما نزلت هذا المركب رأيت فيه كثيراً من أهل بغداد والموصل والشام ومصر يريدون الوفود إلى الاندلس — وعلمت عرفت منهم عالم لغوى أديب من أهل بغداد يعرف بأبي علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالي ، (١) وفقهه مصر احمد بن أبي عبد الرحمن القرشي الزهري ، (٢) وفقهه مقرر يسمى أبا الحسن علي بن محمد بن اسماعيل بن بشر التميمي الانطاكي ، (٣) وتاجر رحالة من أهل الموصل يعرف بابن حوقل ، (٤) وقينة اسمها فضل المدنية (٥) —

-
- (١) دخل الاندلس ابو علي القالي سنة ٣٣٠ هجرية أيام عبد الرحمن الناصر ، وسنة ٣٣٠ وسنة ٣٤٥ قريب من قريب
- (٢) دخل الاندلس هذا الفقيه المصري العظيم سنة ٣٤٣
- قال ابن حيان فاكرم الناصر مثواه وكان فقيه أهل مصر
- (٣) قال ابن الفرضي أدخل الانطاكي على الاندلس علماً جماً وكان اماماً في القراءات لا يتقدمه أحد فيها مات بقرطبة سنة ٣٧٧
- (٤) وفد ابن حوقل على الاندلس حوال سنة ٣٦٠ ومرو كذلك بصقلية (٥) جاء في نفح الطيب انه اشترى للامير عبد الرحمن صاحب الاندلس قينة اسمها فضل والظاهر أنه يعني

وأصل هذه القينة كما أخبرني لاحدى بنات هرون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد ونهدت من هناك إلى المدينة المشرفة فازدادت ثم طبقتها في الغناء ثم اشتريت للأمر عبد الرحمن مع صاحبة لها تسمى علم المدينة وصواحب اخرى ، وقد عقدت الغربية بينى وبين فضل صحبة - لأن الغريب كما قيل للغريب نسيب - فرأيت منها أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حلوة الشمائل معسولة الكلام - ذلك إلى حذقها في الغناء ولباقتها به مع الظرف الناصع ، والجمال الرائع فكانت - صنع الله لها - سلوتنا في سفرنا وكانت تجلو هموم السّفَر^(١) ومرض البحر ، بما تنفثه بيننا للفينة بعد الفينة^(٢) من سحر الحديث الذى يأخذ بالآلِباب ويرتفع له حجاب القلوب ، فهو كما قال أبو حية النمرى

عبد الرحمن الاوسط لاعبد الرحمن الناصر فليلاحظ ذلك ، على أنه جاء في كتب التاريخ أنه كان في هذا المركب - مركب الناصر - جوار مغنيات اشترين للناصر من المشرق (١) أي المسافرين
(٢) الحين بعد الحين ومثلها الخطرة بعد الخطرة

فيمن يقول :

حديث إذا لم تخش عينا كأنه
إذا ساقطته الشهد أو هو أطيّب

لو انك تستشفى به بعد سكرة

من الموت كادت سكرة الموت تذهب

ولما أقلمت بنا السفينة من مرسى الاسكندرية
تحركت الريح الشرقية نسيماً فاتراً عليلاً ثم غشى البحر ضباب
رفيق سكنت له أمواجه، فعاد كأنه صرح مرمّد من قوارير
فبقينا لاعبين على صفحة ماء نخاله العين، سبيكة لجين، كأن
نجوم بين سماءين، فكان لذلك منظر هو قيد النواظر
وغلّ^(١) الأبواب وشرك النفوس - تجلى لنا فيه جمال
الكون وصانعه، فكنت ترى السماء صافية الأديم، زاهرة
النجوم، وكوكب الزهرة مقبلاً من ناحية المشرق يحفه
الجمال والجلال، فلولا التقى لقلت جلت قدرته، وترى
البحر كأنه مرآة مصقولة تنظر السماء فيها وجهها، فكاننا

الماء سماء ، وكأن السماء ماء ، وترى النوتية مجدين في التجذيف
على حال لو هممت بتشبيهها بشيء حسن لا اضطررك حسنها
إلى رده إليها .

مجازف كالحيات مدت رؤسها
على وجل في الماء كي تروى الظما
كما أسرع عدداً أنامل حاسب
بقبض وبسط يسبق العين والفما (١)
وفما بين ذلك تسمع فضلاً تغنى في قبها مواليا بغدادية
ساحرة وبين يديها مزهر تقلدته أطرافها .
تمت به ألبانة - وقلوبنا -
مراراً وتحيين بعد همود
إذا نطقت صحننا وصاح لنا الصدى
صياح جنود وجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله
كأننا من الفردوس تحت خلود

(١) البيتان لابن عمرو يزيد بن أبي خالد اللخمي الاشبيلي الاندلسي

ومضى على ذلك ثلاثة أيام بلياليها كننا من أوقاتها في
بُلْهَنِيَّة (١) من العيش ، وغفلة عن أعين الدهر ، ووصال
أخضر ، ونعمى لا يشوبها بؤس ولا كدر ، فلما كان اليوم
الرابع - ولا كان - هبت علينا ريح عاصف رمتنا بها
الأقدار من حيث لا ندرى ، فأرغى البحر وازبد ، وأبرق
وأرعد . وتلاطمت الأمواج ، واهتاجت إيما احتياج ،
وصار بها عمرك الله مثل الجنون ، وتراءت في صورها النون

وقد فغر الحمام هناك فاه

وأتلع جيده الأجل المتاح (٢)

فانقلب يسرنا عسراً ، وأدال الله من الحلومراً ، وعظم
الخطب ، وعم الكرب ، ونحن في ذلك قعود ، كدود على
عود ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق
ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجود ،

(١) رخاء لا يشوبه سوء - من البلاءة

(٢) لابن خفاجة الاندلسى - فغر فتح والحمام الموت وأتلع

إلا السماء ، والماء ، وذلك السفين ، ومن في قبر جوفه دفين

البحر صعب المرام جدا لا جعلت حاجتي إليه
أليس ماء ونحن طين فما عسى صبرنا عليه (١)

ولبتنا على هذه الحال من ظهر اليوم الرابع الى سحره
وبعد ذلك فترت الحال بعض الفتور ، ثم جاءت ريح رُخاء
زجت السفينة إلى بر جزيرة اقريطش « كريد » أهنا تزجية
وأخذنا نسير في محاذاتها ، فما كان الا كلا ولا حتى وصلنا
إلى مدينة الخندق (٢) إحدى مدنها ومرافئها العظيمة ،
فأرسينا بها ريثما نشترى منها ما يعوزنا من الخبز واللحم
والماء والفاكهة .

أقر يطش

وهذه الجزيرة من جزر بحر المغرب الكبيرة ، فيها
مدن وقرى كثيرة ، يقابلها من بر أفريقيا لوييا ، وجميع
سكانها الآن مسلمون ، وأميرها يسمى عبد العزيز بن

(١) المقرئ صاحب نفح الطيب (٢) كنديه Candia

شعيب من ولد أبي حفص البلوطي الاندلسي ^(١) وذلك فيما علمت أن الحكم بن هشام أمير الاندلس كان قد أمعن صدر ولايته في اللذات ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحمد رواه الموطأ عنه ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، فنقموا عليه وثاروا به وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالرطب الغربي من قرطبة - محلة متصلة بقصره - فقاتلهم الحكم واستلحمهم ، وهدم ديارهم ومساجدهم فلاحقوا بفاس من أرض العدو ^(٢) وبالا سكندرية ، وبعد أن أقاموا في الاسكندرية حيناً من الدهر تلاحق رجل منهم مع جزار من سوقتها فنادوا بالثار واستلحموا كثيراً من أهل البلد وأخرجوا بقيتهم وامتنعوا بها وولوا عليهم أبا حفص عمر بن شعيب البلوطي - ويعرف بأبي الفيض من أهل قرية مطروح من عمل فخص البلوط المجاور لقرطبة - فقام برأسهم . وكان على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر من جهة المأمون ، فزحف اليهم وحصرهم بالا سكندرية

(١) كل ما ذكر عن كريد تاريخي حقيقي (٢) مراکش

فاستأمنوا له فأمنهم وبعثهم إلى هذه الجزيرة - أقریطش -
 فعمروها وأضاءوها بنور الاسلام وشيدوا بها المعادل
 والحصون والمدن العظيمة مثل الخندق التي اشترينا منها
 خبزنا ولحنا ، وبهرنا ما رأينا فيها من حضارة العرب وعز
 الاسلام ، ولا يزال أميرها الى اليوم - وهو سنة خمس
 وأربعين وثلاثمائة - من ولد أبي حفص البلوطي ، وهو الأمير
 عبد العزيز بن شعيب ، أدام الله عليه ملكه ، وأبعد عنه
 كيد الأعداء

* * *

ولما أفلعنا عن بر جزيرة أقریطش أسعدت الريح ،
 وأصحت السماء ، ونام عنا البحر ، وأخذت السفينة تشق
 اليم ، شق الجلم ^(١) وأخذنا في سمت جزيرة صقلية (Sicily)
 وما زلنا حتى قطعنا سبعمائة ميل في مدى أربعة أيام بلياليها
 ولما قاربنا صقلية وصرنا منها أدنى ذي ظلم ^(٢) أخذت أعيننا

(١) المقص (٢) أقرب شيء اليها تقول انه لا أول ذي

ظلم لقينته اذا كان أول شيء مد بصرك لبيل أو نهار ومثله لقينته

أشباحاً كالآعلام تسير على وجه الماء تنضم إلى بعضها تارة
وتنصاع كسرب القطا أخرى ، فتساءلنا ، فقيل لنا ان هذا
أسطول المعز لدين الله أبي تيمم معد العبيدى يغزو ويروح
بين صقلية وبين قلاوريه (Calabria) من بر الارض الكبيرة
« أوروبا » فاغتنب بهذا المنظر تاجر مغربي أديب من أهل
المهديّة ، نزل معنا من أقریطش بنية الوفود إلى صقلية ،
وأخذت منه هزة الطرب حين رأى أسطول بلده ، ورفع
عقيرته — وقد أنافت برأسه النُّعْرَة — نعمة العصبية —
قائلاً : لله أبو القاسم محمد بن هانىء الاندلسي شاعر سيدنا
المعز لكانه يرى مانرى الآن حين يقول ، فى هذا الاسطول

اما والجوارى المنشآت ^(١) التى سرت

لقد ظاهرتها ^(٢) عدة ^(٣) وعديد ^(٤)

أول وهلة وأول صوك وبوك

(١) السفن (٢) طاونتها (٣) عدد وآلات (٤) اناس

متعددة كثيرة — جنود —

قَبَاب (١) كما ترخى القَبَاب على المِهَا (٢)
 ولَكَنَّ من ضمت عليه أُسود
 عليها غمام مكفهر صَبِيره (٣)
 له بارقات جمّة ورعود
 أنافت بها أعلامها (٤) وسماها
 بناء على غير العراء مَشِيد
 من الراسيات الشم لولا انتقالها
 فمنها قنّان شمّخ وريود (٥)
 من الطير الا أنهم جوارح
 فليس لها الا النفوس مصيد

(١) جمع قبة (٢) جمع مهاة وهى فى الاصل البلورة التى تبص
 لشدة بياضها أو الدرة ثم اطلقت على بقرة الوحش على التشبيه
 لبياضها ثم هم يشبهون المرأة بالمهاة فى البياض يعنون البلورة
 أو الدرة واذا شبت بها فى العينين فانما يعنى بها البقرة يقول كما
 ترخى القَبَاب على النساء (٣) الصبِير السحاب الا ببيض
 (٤) راياتها (٥) القنّان جمع قنة وهى أعلى الجبل والريود جمع
 ريد بفتح الراء الحرف الذائق من الجبل

من القادحات النارُ تضرم للصلي
فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج
كما شب من نار الجحيم وقود
فأفواههن الحاميات صواق
وأنفاسهن الزافات حديد
لها شعل فوق الغمار^(١) كأنها
دماء تلمقتها ملاحف سود
تعاقد موج البحر حتى كأنه
سليط له فيه الذبال عتيد^(٢)
ترى الماء فيها وهو قان عبابه
كما باشرت رَدع الخلق جلود^(٣)

(١) الغمار جمع غمر الماء الكثير

(٢) السليط الزيت والذبال الفتائل وعتيد معد حاضر

(٣) الخلق الزعفران والردع اللطخ بالزعفران وقان أي

فليس لها إلا الرياح أعنة
 وليس لها إلا الحباب كديد (١)
 وغير المذاكي تجرها (٢) غيراتها
 مسومة تحت الفوارس قود
 رحيمة مد الباع وهي نتيجة
 بغير شوى (٣) عذراء وهي ولود (٤)
 تكبرن عن نفع (٥) يثار كأنها
 موال (٦) وجرد الصافنات عبيد

(١) الكديد تراب حلبة الخيل (٢) يقول ليست من
 الخيل لان المذاكي الخيل والمجر الاصل (٣) يقول انها رحيمة
 مد الباع مع انها من غير قوائم فالشوى قوائم الفرس
 (٤) عذراء لانها لم تركب قبل وولود لانها تحمل ناساً فكان
 الجنود فيها اولادها وهذا من قول مسلم بن الوليد
 كشفت اهاويل الدجى عن مهولة تجارية محمولة حامل بكر
 (٥) غبار
 (٦) المولى السيد

- لها من شقوق العبقرى ملابس^(١)
مفوفة^(٢) فيها النضار جسيم^(٣)
كما اشتملت فوق الارائك خرد^(٤)
أو التفعت فوق المنابر صيد^(٥)
لبوس تكف الموج وهو غطامط^(٦)
وتدراً بأس البم وهو شديد
-

(١) الشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق والعبقر موضع
تزعّم العرب انه في أرض الجن قالوا وتوشى فيه البسط وغيرها
ثم نسبوا اليه كل شيء تمجبوا من حذقه وجودة صنعته وقوته
ويقال ثياب عبقرية من هذا

(٢) مفوفة فيها خيوط بيض

(٣) النضار الذهب والحسيد الدم

(٤) جمع خريدة وهى من النساء البكر التى لم تمس او الحبيبة

الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة

(٥) ملوك

(٦) اي عظيم - كثير الماء

فمنه دروع فوقها وجواشن^(١)

ومنها خفاتين^(٢) لها وبرود

وإنا لفي ذلك إذ رأينا قلورية من بر الأرض الكبيرة
عن يميننا ، وبر جزيرة صقلية عن يسارنا ، ثم دخلنا المجاز
الذي بينهما ، فرأينا بحراً صعباً ينصب انصباب العرم ، ويغلي
غليان المرجل ، لشدة انحصاره وانضغاطه ، فاستمر مركبنا
في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقاً عنيفاً ، فلما شارفنا
مدينة ريو (Reggio) وقد كان الليل مظلماً ربوض النواحي
ضربت في وجوهنا ريح انكصتنا على الاعقاب ، وحالت
بين الابصار والارتقاب ، وتتابعت علينا عوارض ديم
صرنا منها ومن الليل والبحر في ثلاث ظلم ، وعباب البحر
تتوالى صدماته ، وتطفر الابواب رجفاته ، فقطعنا هذه الليلة
البهائم في مقاساة احوال نجعل الولدان شيباً^(٣) ثم تداركنا
صنع الله مع السحر ، ففترت الريح ، ولان متن البحر وجاءت
ريح رخاء زجت المركب نزجية حسنة الى مدينة ريو

(١) الجواش القمصان (٢) نوع من الثياب (٣) ابن جبير

وكان ذلك في فجر اليوم التاسع ليوم انفصالنا عن الاسكندرية . وما أرسى المركب على هذه المدينة حتى أقلع عنها كيلا يحسه اسطول العبيدين وينثر منه . وذلك فيما علمت أن المركب الأندلسي كان قد تحرش وهو ذاهب إلى بلاد المشرق بمركب للمعز فيه كتب ورسائل - فقطع عليه المركب الأندلسي وأخذه بما فيه ^(١) فتملكنا الذعر لذلك الخبر، ونزت قلوبنا خوفا على أنفسنا - ومن ثم اعترمت أن أنزل من هذا المركب على أقرب بلد يرسى عليه ، وكذلك نزلت منه عند إرسائه على هذه المدينة وحمدت الله الذي لا يحمد على المحبوب والمكروه سواء .

يَيدَ أنى ما انفصلت عن المركب حتى انفصل عني قلبي وسار مع من فيه وأصبحت على حد قول القائل :

(١) ابن خلدون

هواى مع الركب اليمانين مُصعدٌ

جنيب وجئمانى بمكة موثق

ذاك انفصالى عن فضل المدينة التي هي مَراد السمع
ومرتع النفس وريع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب
وأنس الوحيد وزاد الراكب ، ولا بدع فهناك الجمال الرائع
والظرف البارع والشباب البض ، والأدب الغض ، ورقة
الحاشية ، وخفة الناحية ، وعذوبة المعاشرة ، وحلاوة المحاضرة

وحديثها السحر الحلال لو انه

لم يحن قتل المسلم المتحرز

إن طال لم يمل وإن هي أوجزت

ود المحدث انها لم توجز

شرك العقول ونزهة ما مثلها

للمطمئن وعقلة المستوفز

* * *

فكأن لفظ حديثها قطع الرياض كسين زهرا

وكان تحت لسانها هاروت ينفث فيه سجرا

حوراء ان نظرت اليه لك سقتك بالعينين خمر
تنسى الغوي معاده وتكون للحكماء ذكرا

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذبة
حبا لذكرك فليمنى اللوم

وما أنس من الأشياء لا أنس صوته العذب الذي
كأنه مجاج النحل، وغناها الحبيب إلى النفوس حتى كأنها
خلقت من كل قلب، فهي تغني لكل ما أحب، ولقد كان
يخيل إلينا وهي تغنينا في المركب أنا في الفردوس يطربنا
نبي الله داود.

إذا هي غمت أبهت الناس حسنـها
وأطرق اجلالا لها كل حاذق

غنت فلم تبق في جراحة الا تمت بأنها أذن

تتغنى كأنها لا تغنى	من سكون الاوصال وهي تجيد
مد في شأو صوتها نفس كا	ف كأنفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه	وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا وبجي	مستلذ بسيطه والنشيد
في هوى مثلها يخف حلیم	راجع حامه ويفوى رشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا	مالها فيهما جميعاً نديد

وأن لا أين مزهرها الذي كأن صوته صرير باب الجنة
والذي كانت اذا تناولته لتضرب على اوتاره فكانما تنتظم
قلوبنا لتضرب على اوتارها . وهكذا هكذا فليكن الغناء
وسمائه ، وهل خلقت الاغاني . لعمر آلهك الا للغواني ؛
وكم بين أن تسمع الغناء من فم تشتهي أن تقبله ، وبين أن
تسمعه من فم تشتهي أن تشيح بوجهك عنه ؛ وأيهما أملح
وأجل . أن يغنيك فحل ملتف المحية وشيخ منخلع الاسنان

متغضن الوجه - أو تغنيك غانية كطاقة نرجس أو آس ،
وكانها حورية أبقّت من رضوان ، خازن الجنان . فآه من
جمالها وآه من حديثها وآه من غنائها وآه من مزهرها ،
ولكن نزلت ريو وفارقتني فضل ، ولله الامر من بعد
ومن قبل

يا وحشة للغريب في البلدة ازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول في نأيه وغرْبته عدل من الله كل ما صنعا

* * *

وهذه ريو هي مدينة عظيمة من مدائن جزيرة قلورية
من بر الارض الكبيرة ، واقعة على مجاز مسيني ، بينها
وبين مسيني نحو من عشرة أميال ، وبها مسجد كبير بناه
في وسطها ابو الغنائم الحسن بن علي بن أبي الحسين السكابي
والى صقلية كان من قبل المنصور العبيدي بعد أن اكتسح
بلاد قلورية جميعاً وتغلغل في أحشائها وشيد بها المعاقل
والحصون وأرغم أنوف أهلها من الروم ، وذلك فيما بلغني أن

الانبرور^(١) صاحب القسطنطينية كان قد أرسل سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة بطريقا في البحر في جيش عرمرم الى جزيرة صقلية فأرسل الحسن الى المنصور العبيدى يعرفه الحال فأرسل اليه اسطولا فيه سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف راجل سوى البحرية ، وجمع الحسن اليهم جمعا كثيرا وسار من بلرم قصبة صقلية في البر والبحر فوصل الى مسيني وعبرت العساكر الاسلامية الى ريو هذه وبث الحسن سراياه في أرض فلورية ونزل هو على بلديسمى جراحة وحاصرها أشد حصار حتى أشرف أهلوها على الهلاك من شدة العطش ، وانه لفي ذلك اذ وصله الخبر أن الروم قد زحفوا اليه فصالح أهل جراحة على مال أخذه منهم وسار الى لقاء الروم ففروا من غير حرب الى مدينة تدعى بارة ونزل الحسن على قلعة تعرف بقلعة قسابة وبث سراياه الى فلورية وأقام عليها شهرا فسألوه الصالح فصالحهم على مال أخذه منهم ودخل الشتاء فرجع الجيش الى مسيني

وشتي الاسطول بها ، فأرسل اليه المنصور يأمره بالرجوع الى قلورية فسار الحسن وعبر المجاز الى جراجة فالتقى المسلمون والروم يوم عرفة سنة اربعين وثلاثمائة فاتمتلوا أشد قتال رآه الناس فانهزمت الروم وركب المسلمون اكتافهم الى الليل وغنموا أثقالهم وسلاحهم ودوابهم ثم دخلت سنة احدي واربعين فقصد الحسن جراجة فحصرها فأرسل اليه الانبرور يطلب منه الهدنة فهادنه وعاد الحسن الى ريو وبني بها مسجد كبيراً في وسطها وشرط على الروم أنهم لا يمنعون المسلمين من عمارته واقامة الصلاة فيه والأذان وان لا يدخله نصراني ومن دخله من الاسارى المسلمين فهو آمن سواء كان مرتداً أو مقيماً على دينه وان أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وافريقية فوفى الروم بهذه الشروط كلها ذلة وصغاراً (١)

* * *

أما قلورية فهي جزيرة كبيرة داخلية في البحر مستطيلة

شرقى جزيرة صقلية وأهلها أفرنج ولها بلاد كثيرة وارض واسعة ينسب اليها فيما أحسب ابو العباس القلورى حدث عنه ابو داود السجستاني فى سننه^(١) وقد غزى المسلمون ازمان بنى الاغلب هذه الجزيرة وارض انكبردة « لومبارديه » وامعنوا فيها واستولوا على مدينة بارة^(٢) الواقعة على جون البنادقين^(٣) أيام قارله^(٤) انبرور الفرنج . وكذلك استولوا على مدينة طارنت من ارض أنكبُرْدَة ومدينة مُلف وقلعة قسانه وبلدانا اخرى ، وقرعوا أبواب رومة العظيمة ، وغنموا منها غنائم لا يستقام لها قيمة^(٥) وضربوا الجزية على البابا عظيم النصرانية — وذلك عدا أنهم فتحوا مدينة جنوة الواقعة على خليج الجنويين واكثر جزائر هذا البحر الرومى —

(١) معجم البلدان (٢) جاء فى دائرة معارف البستاني ما يأتى : هي مدينة فى ايطاليا على شبه جزيرة صغيرة فى بحر ادرياتيك : — الى أن قال . وفى عهد شارلمان كانت بارة اكبر حصن للعرب على هذا البحر (٣) بحر الادرياتيك (٤) هو ؟؟ شارلمان وانبرور اى امبراطور (٥) لا تقدر قيمتها نفاسة

وجملة القول أن المسامين أثنخوا في بلاد الارض الكبيرة
وألخوا في قهرها ، وغلبوا أممها على امرها ، وضربت
اساطيلهم بجزائر هذا البحر ضراء الضياغم بفرائسها ، وأدبل
لهم بها من املاكها ^(١) واناسها ، وذلك كله بما قوى عزائمهم
من الحق واليقين ، والف بين قلوبهم من وشائج هذا الدين
وبما ألجأتهم اليه الحال . وامتلاكهم لسيف ^(٢) هذا البحر الجم
الاهوال . مما احكمهم وأشغفهم بحبه . وجعل لهم دربة
بركوبه وحربه . واغراهم بانشاء الاساطيل فيه ينقضون بها
على جزائره التي يخططها العد والاحصاء وعلى عدوته
الشمالية ^(٣) وهي أمتع من العقاب في أجواز الفضاء . وعلى
أهلها من امم فرنجة وهي أعز وأبعد منالا . وان كان
للمسامين

شرف ينطح السماك بروقيه وعز يقلقل الاجبالا

*
* *

(١) ملوكها (٢) السيف ساحل البحر والجمع اسياغ

(٣) سواحل اوروبا الجنوبية

وهم البحر ذو الغوارب الا انه صار عند بحرك آلا

* * *

وقد كان المسامون في الصدر الاول يتحاشون ركوب البحر حتى كان من عمر بن الخطاب لما كتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر يستوصفه البحر فكتب اليه عمرو فيما كتب : ان البحر خلق عظيم يركبه خالق ضعيف ، دود على عود : — أن اوعز بمنع المسامين من ركوبه فتخرجوا منه وعبروا على ذلك حيننا من الدهر . حتى اذا كان لعهد معاوية اذن في ركوب اثباجه . والجهاد على متون امواجه وذلك لان العرب لبدائتهم لم يكن لهم مران عليه وحذق بركوبه بينما الروم والفرنجية لما رستهم احواله ومرباهم في التقلب على اعواده للحرب والاتجار مرنوا عليه واحكموا الدربة بثقافته والحرب في أساطيله حتى كان من ذلك أن أغار الروم من العدو الشمالية على أفريقية من العدو الجنوبية والقوط على المغرب منها — اجازوا في الاساطيل وملسكوها وتغلبوا على البربر بها وانزعوا من أيديهم

امرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنه ، وطنجه وكان صاحب قرطاجنه من قبلهم يحارب صاحب رومه ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد — فكان ذلك ديدن أهل هذا البحر الساكنين حفافيه في القديم والحديث فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت امم الاعاجم خولا لهم وتحت أيديهم وممت اليهم كل ذى صنعة بمبلغ صناعته واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية امما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، شرهوا الى الجهاد فيه فأنشأوا السفن والاساطيل وشحنوها بالرجال والسلاح وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من هذه الامم الحمراء . واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والغرب والاندلس ، فاوزع عبد الملك بن مروان الى حسان بن النعمان عامل افريقية باتخاذ دار الصناعة بقونس لانشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله بن الاغلب كما سيمر بك ، ثم تسلسل الامر حتى

بلغ شأن الاساطيل عند العبيديين أصحاب افريقية وعند
بنى امية بالأندلس مبلغاً غلبوا معه على هذا البحر من جميع
جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه وصار لا قبل
لام النصرانية باساطيلهم به وماكوا سائر الجزائر
المنقطعة عن السواحل منه مثل اقريطش وصقلية وقبرص
ومالطة وقوصرة وسردانية وميورقة ومنورقة ويابسة (١)
كما سيمر بك ان شاء الله .

ولقد كان من أجل عناية العبيديين وبنى أمية بشأن
الأساطيل وتفوقهم في ذلك على سائر الممالك الإسلامية
للسبب الذي قدمناه وهو وجودهم على ضفاف هذا البحر -
أن انبعثت قرائح الشعراء في الاندلس وأفريقية بالقول في
وصف الاساطيل، واختص أدباء هذين القطرين بهذا الباب
من الوصف حتى لا تكاد تجد لشعراء المشرق يداً فيه - ومن
أحسن ما سمعناه لشعراء المغرب في الأسطول دالية أبي القاسم

محمد بن هانيء الشاعر الاندلسى المنقطع الآن للمعز العبيدي
وقد تقدمت فى صدر هذه الرسالة . وبائية علي بن محمد الايادى
التونسي شاعر القائم العبيدى وهى دون الدالية، وفيها يقول

شرجوا جوانبه مجاذف أتعبت

شأو الرياح لها ولما تعب

تنصاع من كشب كما نفر القطا

طورا وتجتمع اجتماع الربوب

والبحر يجمع بينها فكأنه

ليل يقرب عقرباً من عقرب

وعلى كواكبها أسود خلافة

تختال فى عدد السلاح المذهب

فكأنما البحر استعار بزيمهم

ثوب الجمال من الربيع المعجب

ومنها فى وصف الشراع

ولها جناح يستعار يطيرها

طوع الرياح كراحة المتطرب

بعلوبها حذب العباب مطارة
في كل لج زاهر مغلوب
يسمو بأجرد في الهواء متوج
عريان منسوج الذؤابة شوذب^(١)
يتنزل الملاح منه ذؤابة
لو رام يركبها القطا لم يركب
فكأنما رام استراقة مقعد
للسمع الا أنه لم يشهب
وكأنما جن ابن داود ثم
ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم ناراها فتقاذفوا
منها بالأسن مارج متلهب
من كل مسجور الحريق اذا انبرى
من سجنه انصلت انصلات الكوكب

عريان يقذفه الدخان كأنه
صبح يكر على الظلام الغيب
الى أن قال

ولواحق مثل الأهله جنح
لحق المطالب فائتات المهرب
يدهن فيما يبنهن اطافة
ويجنن فعل الطائر المتقلب
كنضاض الحيات رحن لواعباً
حتى يقعن برك ماء الميزب

«وبعد» فان لشعراء المغرب من بارع القصيد في هذا
الباب ما لا يحصى كثرة ، وما ينم عن عظمة الاساطيل عند
الدول الاسلامية وبلوغها لديهم الشأو الذي لا يلحق حتى
وصل المسلمون إلى ما وصلوا اليه من الصولة واتساع الملك
وضخامة السلطان .

ومن هنا تعرف مكان الاساطيل من الدول ولا سيما

دول البحار مثل الدول الإسلامية لعمدنا ، وإن الاسطول
هو سياج الدولة وعمادها ، وبه عزها وعليه بعد الله اعتمادها ،
بل هو درعها الماردة التي تقى بها سهام الأعداء وتحول
وسلاحها الذي تطول به في البحر وتصول ، وجناحها الذي
تطير به في سماء المجد وتجول ، وإن دولة لم تكن العناية كلها
بالاساطيل ، وترسلها على متن هذا البحر طيراً أبابيل ،
هي لعمري دولة مقصومة الجناح ، وكالاً عزل يقتحم
الهيحاء بغير سلاح .

وما خير كف أمسك الغُل اختها

وما خير سيف لم يؤيد بقاءم

ولما نزلت على ربو أخذت سمتي إلى مسجدها الجامع
لأصلي فيه صلاة الصبح وأناج صدري ببرد التقى وشعائر
الاسلام . وأجلو بعضاً من وعشاء السفر الزوام ، وما زلت
حتى أخذت عيني بناء شاهقا نعيم مأذنته بالعماء . كأنما تنث
حديثاً إلى ملائكة الله في السماء . أو كأنها تعلن برفعها رفعة

الاسلام ، وعزة أهله على عبـد الطاغوت والاصنام . وكذلك رأيت كل من مر بهذا المسجد من الروم أغضى من هابته ذلة وصغاراً . وإجلالا لدين الله واكباراً . مما ألقاه في قلوبهم من الرعب واختشاء المساميين أبو الغنائم الحسن بن علي رحمه الله .

ولما توسطت باحة المسجد رأيت صفوف المصلين من الرجال وأمامهم في المحراب . كسطور أمامها عنوان الكتاب . وخلف الرجال حاجز من خشب يليه صفوف المصليات من النسوان . كما تكون هوامش الصفحة يفصلها من سائرها أحمر من المداد قان . فانضمت إلى صفوف المصلين ، وصليت معهم صلاة الصبح . ولما أن سلم الامام وكان قائداً من قواد العرب في هذه البلاد — وكذلك كان أئمة المسلمين في الحروب والسياسات : أئمة لهم في التقى والصلوات ، قام واتكأ على سيفه وقال (١) :

(١) هذه الخطبة من وضعنا ، وإنما نقصد تصوير ذلك العصر من جميع جوانبه

* * *

أيها العرب أنتم الآن بين ظهرائي أعدو يلندد (١)
يتجرع منكم الغصص، ويتجشع بكم الفرص، ويودلوي بدمانكم
الله تنعفاً من قوة، وضنا بنفوسكم من فتوة (٢). وهزيمة
من ظفر، واستحالة لصفوكم إلى كدر. فيثب بكم وثبة
الغضنفر نال منه الجوع والسّمار (٣). ويسعل بكم كما يسعل
هذا البركان فيرمي بحممه والشرار. فاذا فترت منكم الهمم.
ووهت العزائم، وأغمدتم السيوف في الأجفان. وقعدتم عن
نصر الله في كل آونة وكل مكان. وسكنتم إلى الترف والنعيم
وجرتكم معاذ الله عن النهج القويم. ودب اليكم ما قد دب
إلى هذه الأمم الحمراء. من الحسد والبغضاء. فانكم صائر
لا محالة إلى ما قد صاروا إليه. وإذ ذاك يُبصركم الله بعد
نصركم. فلا (٤) ويديل من عزكم ذلاً. ومن كثركم قلاً.
وتتضنون بعدد على هذا العالم كلاً (٥).

(١) ألد شديد الخصومة (٢) بذل وكرم والمراد كما هو
ظاهر بذل النفس (٣) شدة العطش (٤) منهزمين (٥) طالة وثقلا

وبعد أن فرغ من كلامه خرج وخرج معه رجاله
وعلموا متون الجياد وذهبوا إلى حيث يعلون كلمة الدين ،
ويذيعون النقي والحق واليقين . وينسفون دعائم الشرك
والالحاد . ويفكون اغلال الظلم من رقاب العباد .
مستمسكين بحق قائمين به اذا تلون أهل الجور ألوانا
ولما أن قضيت صلاتي خرجت من المسجد وقصدت
إلى مرسى السفين فوجدت ثمت مركباً يريد أن يعبر إلى
جزيرة صقلية فنزلته ثم أقلع وعبر بنا إلى مدينة مسيني
إحدى مدائن هذه الجزيرة ، وأرسي فيها على مرسى عجيب
يأخذ بالأبواب ، وذلك أن أكبر ما يكون من السفن يرسي
من الشاطئ بحيث يتناول ما فيها من البر بالأيدى (١)

وقبل أن نسترسل في القول على مدينة مسيني وسائر
البلدان التي مررت بها في هذه الجزيرة العجيبة نذكر لك شيئاً
من تقويمها وتاريخها حتى تكون على بينة من أمرها ان شاء الله .

صقلية

هى جزيرة فى البحر كبيرة على شكل مثلث متساوى الساقين ، زاويته الحادة من غربى الجزيرة ، بينها وبين ريو وبلاد قلورية من بر الأرض الكبيرة مجاز مسينى حيث يتراوح البحر بين ستة أميال وعشرة أميال ، وبين ذنبها الغربى وبين تونس نيف وستون ميلا ، وزاويتها الجنوبية تقابل بر طرابلس من أفريقية ، وبالقرب من زاويتها الشمالية جزيرة صغيرة فيها بركان النار الذى لا يعلم فى العالم أشنع منظرا منه : وهذا بركان اسم لجبلين أحدهما هذا والثانى فى صقلية نفسها فى أرض خفيفة التربة كثيرة الكهوف ولا يزال يصعد من ذلك الجبل لهب النار تارة والدخان أخرى ، ومن ثم كانت كثيرة الزلازل بحيث يكثرتهدم أبنيتها منها . وسيمر بك قريبا قول ضايف فى هذا المعنى .

وقد كانت هذه الجزيرة قبل الفتح خاملة قليلة العمارة

وكانت من عمالات الروم وأمرها راجع إلى الانبرور صاحب
قسطنطينية، وكان عليها وال من قبل هذا الانبرور يسمى
قسطنطين، وكانت أفريقية ^(١)، تحت ولاية زيادة الله بن
الأغلب، كان واليا عليها من قبل المأمون بن هرون الرشيد
فلما كانت سنة ثنتي عشرة ومائتين استعمل الانبرور على
الاسطول قائدا روميا يسمى فيمي، وكان حازما شجاعا،
فغزا سواحل أفريقية وعبث فيها وبقي هناك مدة وبعد
ذلك كتب الانبرور إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي
وتعذيبه، فعمى الخبر إلى فيمي فانتقض وتعصب له أصحابه
وسار إلى مدينة سرقوسة إحدى مدائن صقلية فملكها فسار
إليه قسطنطين فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين إلى
مدينة قطانية فسير إليه فيمي جيشا فقبضوا عليه وقتلوه
واستولى فيمي على صقلية وخطب بالملك وولى على ناحية
من الجزيرة رجلا اسمه بلاطة فاتفق بلاطة هو وابن عم له
يسمى ميخائيل كان واليا على بلرم وجمعا عسكرا كثيرا

(١) تونس والجزائر وطرابلس الغرب

وقاتلا فيمي فانهزم فيمي وركب في أسطوله الى أفريقية
مستنجدا بزيادة الله بن الأغلب فسير معه أسطولا عظيماً
في تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل واستعمل عليهم أسد
ابن الفرات — قاضي القيروان ومن أصحابه مالك رضى الله
عنه وهو مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك —
وأقلعو من سوسة ^(١) فوسلوا الى مدينة مازر من صقلية
وساروا الى بلاطة الذى قاتل فيمي فهزموه والروم الذين
معه وغنموا أموالهم وهرب بلاطة الى قلورية فقتل واستولى
المسلمون على عدة حصون من الجزيرة وجرت وقائع كثيرة
بين الروم والمسلمين امتدت سنين طوالا وانتهت باستيلاء
المسلمين على جميع جزيرة صقلية — وبقيت صقلية بيد بنى
الأغلب يتناوبها عمالهم الى أن أدال الله منهم للعبيديين
ودانت لعبيد الله المهدي أفريقية وما إليها فأخذوا يبعثون

(١) هي الآن من أعمال ولاية تونس واقعة على البحر
الابيض المتوسط على مسافة ١١٠ كيلومترا من تونس الى الجنوب
الشرقي

عمالهم عليها الى أن كانت فتنة أبي يزيد وشغل أبي القاسم القائم والمنصور العبيدي من بعده بأمره — فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية لأبي الغنائم الحسن ابن أبي الحسين بن علي الكلابي - وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعة أبي يزيد ^(١) غناء عظيم - فهد الامور للعبيديين

(١) ابو يزيد الخارجي هو رجل من زناة واسم والده كيداد من مدينة توزر من بلاد قسطنطينية بافريقيه فولد له ابو يزيد بتوزر من جارية سوداء ونشأ ابو يزيد في توزر وتعلم القرآن وسار الى تاهرت وصار على مذهب النكارية وهو تكفير أهل الملة واستباحة أموالهم ودمائهم والخروج على السلطان ثم أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة ست عشر وثلثمائة ودعا أهل تلك البلاد فأطاعوه وكثر جمعه في أيام القائم بن المهدي فخصر قسطنطينيه ثم فتح تبسه ثم سببية وصلب عاملها ثم فتح الاريس فأخرج القائم جيوشاً لحفظ رقاده والقيروان فهزمهم ابو يزيد واستولى على تونس ثم على القيروان ورقاده ثم سار ابو يزيد الى القائم فجهز اليه القائم جيشاً جفري بينهم قتال كثير وأخيراً انهزمت جيوش القائم فسار ابو يزيد وحصر القائم بالمهدية

وضايقها وغلبها السمر وعدم القوت ولم يزل حتى رحل عنها
ورجع الى القيروان وفي أثناء ذلك توفى القائم وملك ابنه
المنصور فجهز المنصور العساكر وسار بنفسه الى القيروان
واستعادها من أبي يزيد وانهزمت عساكر الخارجيين وسار المنصور
في أثره فأدركه على مدينة باغية فهرب الخارجيون من موضع الى
آخر حتى وصل طبنة وهرب حتى وصل الى جبل للبربر يسمى
برزال والمنصور في أثره واشتد على عسكر المنصور الحال فرجع
المنصور الى بلاد صنهاجه وبلغ الى موضع يسمى قرية عمره
واتصل به هناك الامير زيري الصنهاجي وهو جد ملوك بني
باديس فاكرمه المنصور غاية الاكرام ثم رحل الى المسيلة وكان
قد اجتمع الى أبي يزيد جمع من البربر وسبق المنصور الى المسيلة
فلما قدم المنصور اليها هرب عنها ابو يزيد الى جهة بلاد السودان
فاقتنى المنصور أثره حتى قابله فاقتتلوا فانهزم ابو يزيد واخذت
أثقاله فالتجأ الى قلعة كتامة وهي منيعة فحاصرها المنصور وداوم
الزحف عليها الى أن ملكها عنوة فهرب ابو يزيد من القلعة من
مكان وعرف سقط منه فأخذوه وحملوه الى المنصور فسجد المنصور
شكراً لله وكثر تكبير الناس وتهليلهم وبقي ابو يزيد في الامر
مجرّواً في المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فسلخوا جلده
وحشوه تبنا وكتب المنصور الى سائر البلاد بالفتح وبقتل أبي

وغزا بلاد قلوريه وأقام واليا على صقلية وماليها الى أن استأثر الله بالمنصور وقام بالأمر من بعده ولده المعز لدين الله أبو تميم معد فسار الحسن اليه بأفريقية سنة احدى واربعين واستخلف على ماوراءه ابنه إبا الحسين احمد، ولا يزال هذا الامير أيده الله واليا على صقلية وما اليها الى اليوم وهو سنة خمس واربعين وثلاثمائة ومقامه ببلرم حضرة هذه الجزيرة .

وهذه الجزيرة جدٌ خَصِيْبَةٌ ^(١) وكلاهما لا ينقطع في صيف ولا شتاء، وهي كثيرة الأمواه والعيون والفواكه والارزاق ^(٢) وجبالها كلها مثمرة بالتفاح والشاه بلوط ^(٣) والبندق والاجاص . ومنها يجلب الجوز والقسطل الى بلاد افريقية ويجلب منها كثير من القطن — وفيها

يزيد وعاد الى المهديّة، وكان أبو يزيد قصيراً اعرج قبيح الصورة، يلبس جبة صوف قصيرة . اه ملخصاً من ابن خلدون

(١) خَصِيْبَةٌ جدا (٢) كتاب الجغرافية لابن عبد الله محمد

بن أبي بكر الزهرى (٣) هو المعروف في مصر بأبي فروة

معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق (١)
وهي مستبحرة العمران كثيرة المدن والقرى والضياع، فقد
أخبرني كُتِبَتْ ثقة أن بهذه الجزيرة مائة وثلاثين بلداً (٢)
بين مدينة وقلعة عدا ما فيها من الضياع والمنازل والبقاع -
وكلها مسكونة بالمسلمين، ملأى بالمساجد والفنادق
والحمامات. وفيها من العلماء والفلاسفة والادباء، ما لا يكاد
يدركه العد والاحصاء (٣) ومن مشهور مدائنها مدينة

(١) نزهة المشتاق ورحلة ابن جبير ومعجم البلدان

(٢) معجم البلدان

(٣) انجبت جزيرة صقلية كثيراً من العلماء والادباء والشعراء
والفلاسفة والاطباء ممن لهم شأن في الادب العربي واكثرهم كان
بعد زمن الرحلة. ولا بأس بإيراد بعض مشهورهم هنا حتى تكون
هذه الرسالة وحواشيتها مغنية في هذا الباب. فمن علماء هذه
الجزيرة ابو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن
القطاع - قال ابن خلكان: كان أحد أئمة الادب خصوصاً اللغة وله
تصانيف نافعة منها كتاب الافعال أحسن فيه كل الاحسان وهو
أجود من الافعال لابن القوطية وان كان ذلك قد سبقه اليه، وله

كتاب ابنية الاسماء جمع فيه فاعى وفيه دلالة على كثرة اطلاعه
وله عروض حسن جيد ، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من
شعر شعراء الجزيرة (أى شعراء جزيرة صقلية) وكتاب للملح
الملح جمع فيه خلقا من شعراء الاندلس - وكانت ولادته في العاشر
من صفر سنة ثلاث وثلاثين واربعائة بصقليه ، وقرأ الادب على
فضلائها كابن عبد البر اللغوي وأمثاله وأجاد في النحو غاية
الاجادة ورحل عن صقليه لما اشرف على تملكها الافرنج ووصل
الى مصر في حدود سنة خمسائة وبالع أهل مصر في اكرامه -
ومن شعره في ألثغ

وشادن في لسانه عقد حلت عقودي واوهنت جلدي
حابه جهلا بها فقلت لهم اما سمعتم بالنفث في العقد
وله من قصيدة

فلا تنفدن العمر في طلب الصبا ولا تشقين يوما بسعدى ولا نعم
ولا تندبن اطلال مية باللوى ولا تسفجن ماء الشؤن على رمم
فان قصاري المرء ادراك حاجة وتبقى مذمات الاحاديث والاثم
الى آخر ما قال . وتوفي بمصر في صفر سنة خمس وعشرين وخمسمائة
ومن علماء صقلية ابو عبد الله محمد بن ابي محمد بن ظفر الصقلي
المنعوت بحجة الدين ، قال ابن خلكان : صاحب التصانيف الممتعة

ككتاب سلوان المطاع، في عدوان الاتباع، صنفه لبعض القواد بصقلية سنة اربع وخمسين وخمسمائة، وخير البشر بخير البشر وكتاب الينبوع في تفسير القرآن الكريم وكتاب نجباء الانباء وشرح المقامات للحريرى وهما شرحان كبير وصغير

ويروى له شعر فمن ذلك قوله

حملتك في قلبي فهل أنت عالم بأنك محمول وانت مقيم
الا أن شخصاً في فؤادي محله واشتاقه شخص على كريم
الى أن قال - وكانت نشأته بمكة وتنقل في البلاد ومولده بصقلية وسكن آخر الوقت بمدينة حماة وتوفي بها سنة خمس وستين وخمسمائة - ومن علمائها ابو عبدالله المازري وسيأتي القول عليه - ومنهم ابو بكر محمد بن سابق الصقلي قال ابن بشكوال في الصلة : كان من أهل الكلام ماثلاً اليه قدم الاندلس وأخذ عنه أهل غرناطة وتوفي بمصر سنة ثلاث وتسعين واربعمائة - والقاضى الرشيد احمد بن قاسم الصقلي قال العماد : طراً على مصر وكان قاضى قضاتها في أيام الافضل : قال : دخل يوماً على الافضل وبين يديه دواة من عاج محلاة بمرجان فقال

ألين لداود الحديد بقدره يقدره في السرد كيف يريد
ولان لك المرجان وهو حجارة على أنه صعب المرام شديد

وابو الفضل العباس بن عمرو الصقلی قال في جذوة المقتبس
كان بالاندلس وروي الحديث هناك - والفقیه ابو موسى
عيسى بن عبد المنعم الصقلی قال العماد : كان كبير الشأن ، ذا الحجة
والبرهان ، الي أن قال : ومن بدیع قوله في الغزل . وهو أحلي
من نبح الامل

يا بنی الاصفر انتم بدمی منكم القاتل لی والمستبیح
أملیح هجر من یهواکم وحلال ذاك فی دین المسیح
یا علیل الطرف من غیر ضنی وادا لاحظ قلباً فصحیح
کل شیء بعد ما أبصرتکم من صنوف الحسن فی عینی قبیح
وولده الفقیه أبو عبد الله محمد بن عیسی بن عبد المنعم الصقلی
قال العماد : کاتب شاعر ، بارع ماهر ، مهندس منجم ، لغارب
الفصاحة متسنم ، وفي ملتقى اولی العلم کمی معلم ، الى آخر ما هنالك
وقال صاحب طبقات الحکماء . هو من أهل العلم بعلم الهندسة
والنجوم ماهر فیهما قیم بهما مذكور بین الحکماء هناك
ومن شعره

کتمت الذی بی فانتفعت بکتمانى
وأعلنت حالى فاتهمت باعلانى

وما خلت أن الأمر يفضي الى الذي
رايت ولكن كل شيء يرى فاني

ومنه

أنا والله عاشق لك حتى ليس لي عنك يا مني النفس صبر
وحياتي ان تم لي منك وصل ومماتي ان دام لي منك هجر
« وهذا ابو عبد الله هو غير أبي عبد الله الصقلي الفيلسوف
المذكور في الرحلة » ومنهم ابو الحسن علي بن حمزة الصقفي قال في
جدوة المقتبس : دخل الاندلس قبل الاربعين واربعمائة وكان
يتكلم في فنون ويشارك في علوم الى آخر ما قال — والفقيه
ابو محمد بن صمنة الصقلي ذكره العماد في الخريدة . ومن أطباء صقليه
أبو سعيد بن ابراهيم الصقلي صاحب كتاب المنجج في التداوي
من صنوف الامراض والشكاوي . واحمد بن عبد السلام الشريف
الصقلي صاحب كتاب الاطباء في الامراض من الفرق الى القدم
ذكرهما صاحب كشف الظنون — ومن فلاسفتها ابو عبد الله
الصقلي الآتي ذكره في الرحلة وابو عبد الله المتقدم ذكره
واو حفص عمر بن الحسن بن القوني الكاتب ذكره العماد وقال انه
شاعر كاتب منجم مهندس — ومن ادبائها الشاعر الكبير ابن
حمديس قال ابن بسام : هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعاني
البديعة ، ويعبر عنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ، ويتصرف في

التشبيه المصيب . وينغوص في بحر الكلام على در المعني الغريب ،
فن معانيه البديعة قوله في صفة نهر

ومطررد الاحزاء يسقل متنه صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما حرى عليها شكا اوجاعه نخريره
كأن جباناً ربع تحت حبابه فاقبل يلقي نفسه في غديره
كأن الدحى خط المجرة بيننا وقد كللت حافاته ببسوره
شربنا على حافاته دون سكره تقبل شكراً منه عيني مديره

وله من قصيدة

بت منها مستعبداً قبلا كن لى منها على الدهر اقترح
وأروى غلل الشوق بما لم يكن فى قدرة الماء القراح

وأول هذه القصيدة

قم هاتها من كفدات الوشاح فقد نعى الليل بشير الصباح
باكر الى اللذات واركب لها سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ريق الغوادي من ثغور الافاح

وكان قد دخل الاندلس سنة احدى وسبعين واربعائة ومدح
المعتمد بن عباد فأحسن اليه وأجزل عطاياه ، ولما قبض المعتمد
وحبس بأغمت ممع ابن حمديس أبياتا عملها المعتمد في الاعتقال
فقال

أتياؤ من يوم يناقض أمسه
 وشهب الدرارى فى البروج تدور
 ولما رحلتم بالندي فى أكفكم
 وقلقل رضوي منكم وثمر
 رفعت لسانى بالقيامة قد دنت
 فهذى الجبال الراسيات تسير
 وله من أبيات المعانى الغريبة
 زادت على كحل العيون تكحلا ويسم نصل السهم وهو قول
 وله يتشوق الى صقلية مسقط رأسه
 ذكرت صقلية والهوى يجدد للنفس تذكارها
 فان كنت أخرجت من جنة فاني احدث اخبارها
 ولولا ملوحة ماء البكاء حسبت دموعي أنهارها
 ثم بقول بعد ذلك من أبيات
 ولو أن أرضى حرة لاتيها
 بعزم يعد السير ضربة لازب
 ولكن أرضى كيف لي بفكائها
 من الاسرى أيدي العلوج الكواذب (١)

(١) فارق ابن حمديس صقلية بعد أن تملك معظمها ووجر النور مندي
 وذلك حوال سنة ٤٧١ هـ وكان ابن حمديس اذ ذاك حدثا فى منتصف العقد الثالث

ويقول من أبيات يصف جارية له غرقت

واوحشتا من فراق مؤنسة	يمتني ذكرها ويحييها
اذكرها والدموع تسبقني	كأنني للأسى أجاريها
جوهرة كان خاطري صدفا	لها أقبحا به وأحياها
يا بحر ارضت غير مكترث	من كنت للبياع اغليها
أبتها في حشاك مفرقة	وبت في ساحليك أبكيها
ونفحة الطيب في ذوائبها	وصبغة الكحل في مآقيها
حانقها الموت ثم فارقتها	عن ضمة فاض روحها فيها
ويلى من الماء والتراب ومن	أحكام ندين حكما فيها
أماها ذا وذاك غيرها	كيف من العنصرين أفديها

وله يصف عوداً

في حجره اجوف له عنق	نيمات بظهر تخاله حنقه
يمد كفا اليه ضاربة	اغناق احزاننا اذا ضربه
قلت ألا فانظروا الى عجب	جاء بسحر فانطق الخشب

وله

واشراك الردي في الغيب تخفى	كما يخفين في ترب الحضيض
عجبت لجمعه فيهن صيداً	حوي بين القشاعم والبعوض

وله يصف خسوف القمر
والبدر قد ذهب الخسوف بنوره
في ليلة خسرت أواخر مدها
فكأنه مرآة قين احميت
فشي احمرار النار في مسودها

ومن أبيات له يصف البق والبراغيث والبعوض
نومي على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من حاديات كالذئاب تذاءبت وسرت على عجل فما ترتبص
جعلت دمي خمرأ تداوم شربها مسترخصات منه ما لا يرخص
فترى البعوض مغنياً بربابه والبق تشرب والبراغيث ترقص

واليك أبيات له من السهل الممتنع يصح أن يتغنى بها
هات كاس الراح أوخذها اليك ينزل اللهو بها بين يديك
ريقة العيش بها فاخلع على شفيتها كل حين شفتيك
وأطع فيها نديمك بما حكما واعص عليها حاذليك
واذا سقيت منها شفقا طلعت حمرة في وجنتيك
وتناول نشوة من روضة طلعت كالشمس بالنجم عليك
تغنى بنسب قلته فهوها راجع منك اليك
فاوضت في الوصل عيني عنها فازدهت عجباً وقالت ما لديك

أعليل أنت ماذا تشتهي قلت قطني بيدي رمايتيك
فأنثت كبرا وقالت ويلتا أو هذا كله يطلب ويك
أنا شمس وبعيد فلـكى وضيائي نافر من راحتيك
لو بدا أمرك لى من قبل ذا ما رأيت ناظرتى ناظرتيك
وشعره كله جيد مختار ينم عن خولته وصدق نزغته الشعرية
وله ديوان شعر يوجد منه نسخة فى دار الكتب الملكية
بمصر توفى سنة سبع وعشرين وخمسة مائة بجزيرة ميورقة وقيل
ببجاية — ومن ادبائها ابو العرب مصعب بن محمد بن ابى انفراة
القرشى . قال العباد : ولد بصقلية سنة ثلاث وعشرين واربع مائة
وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة اربع وستين واربع مائة
قاصداً الى المعتمد بن عباد ، وله من أبيات

الى م اتباعي للأمانى الكواذب

وهذا طريق المجد بادی المذاهب

أهم ولي عزمان عزم مشرق

وآخر يثني همتي للمغرب

ولا بد أن أسأل العيس حاجة

تشق على أخفافها والغوارب

على لآمالي اضطراب مؤمل
ولكن على الأقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تصحبي الهون انه
وان خدعت أسبابه شر صاحب
ويا وطني ان بنت غنى فاني
سأوطن أكوار العتاق النجائب
اذا كان أصلى من تراب فكلها
بلادي وكل العالمين أقاربي

« وهذا من قول ابن المعتز

اذا كنت في الناس ذا ثروة
فأنت المسود في العالم
وحسبك من نسب صورة
تخبر أنك من آدم »
وما ضاق غنى في البسيطة جانب
وان جل الا اعترض منه بجانب

اذا كنت ذا هم فكُن ذا عزيمة
فما غائب نال النجاح بغائب

— ومنهم عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الاغلب السعدي

الصقلى المعروف بالقاضي الجليس - قال ابن شاعر الكتبي صاحب
فوات الوفيات تولى ديوان الانشاء للفائز (العلوى صاحب مصر)
مع الموفق بن الخلال - ومن شعره

المث بنا والليل يزهي بلمة
دجوجية لم يكتهل بمد فوداها
فأشرق ضوء الصبح وهو جبينها
وفاحت أزاهير الربى وهي رياها
إذا ما اجتمعت من وجهها العين روضة
اسالت خلال الروض بالدمع أمواها
وانى لاسد تسقى السحاب لربها
وان لم تكن الاضلعى مأواها
إذا اشعلت نار الأسى بين أضلعى
نضحت على حر الحشا برد ذكراها
وماني أن يصلي الفؤاد بحرها
ويضرم لولا أن فى القلب سكنهاها

ومنه

ومن عجب أن الصوارم والقنا نحمض بأيدي القوم وهى ذكور
واعجب من ذانها فى اكفهم تأجج ناراً والا كف بحور

قال : وكان ابن الحباب كبير الانف وكان الخطيب أبو القاسم
هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد مولعا بأنفه وهجاءه وذكر
أنفه في أكثر من ألف مقطوع فانتصر له ابن قادوس الشاعر فقال

يا من يعيب أنوفنا الشـم التي ليست تعاب
الأنف خلقـة ربنا وقرونك الشم اكتساب

مات سنة احدى وستين وخمسة و قد أناف على السبعين
- ومنهم أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن بشرون الكاتب
الصقلي صاحب كتاب المختار في النظم والنثر ، لافاضل العصر
ذكره العباد وأورد له شعراً جزلاً . ومنهم تاج الدولة جعفر بن
ثقة الدولة يوسف بن عبدالله بن محمد بن الحسين القضاءى الكلبي
صاحب صقلية ، قال ابن خلكان كان أديباً شاعراً وله الابيات
السائرة في غلامين على أحدهما ثوب ديباج أحمر وعلى الآخر ثوب
ديباج اسود وهي

ارى بدرين قد طلعا على غصنين فى نسق
وفى ثوبين قد صبغا صباغ الخلد والحدق
فهذى الشمس فى شفق وهذا البدر فى غسق

وكان عمله لهذه الابيات سنة سبع وعشرين وخمسة .
ومنهم أبو عبدالله محمد بن على الصباغ الكاتب قال ابن القطاع :

كان في عهد ابن رشيق وبينهما مراسلات وله
قومي اللذين اذا السنا بك انشأت
دون السحاب سحائباً من عثير
برقت صوارمهم وأمطرت الطلا
علقاً كثر ثار الحيا المتفجر
الواترين فلا يقاد وتيرهم
والفاتكين بحمير وبقيصر
والماعمين حمام ان يرتعى
والحاسمين لكل داء يعترى
- و ابو الفضل مشرف بن راشد قال ابن القطاع القائل
سرت ورداء الليل اسجهم حالك
ولا سائر الا النجوم الشوابك
عشية اعشي الدمع انسان مقلتي
ونمت بأسرار الدموع السوافك
وطاف الكري بالطرف وهو محجب
كما طاف بالبيت المحجب ناسك
سرت موهنا ثم استقلت فودعت
يجاذبها حقف من الرمل طاتك

به غصن بان أثمر البدر طالماً
عليه قناع من دجي الليل حالك
واحور مكحول المدامع عاقى
عن الصبر فاستولت عليه المهالك

- والامير ابو محمد عمار بن المنصور الكلبي قال ابن القطاع :
كان من أفاضل العلماء ، وسادات الامراء ، وذو يد في الفقه
والحديث وله :

تقول لقد رأيت رجال نجد وما ابصرت مثلك من يمان
أثقت وقائع الغمرات حتى كأنك من رداها في امان
المى كم ذا الهجوم على المنايا وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء ولم أسمع بكليّ جبان
وقال في ابن عمه شكابة

ظننتك سيفاً أنتضيك على العدى
وما خلت اني انتضيك على نفسى
وجئتك ابني رفعة وكرامة
فأسميت مهوراً بقربك في حبس

بلرم قصبة هذه الجزيرة ، وسيأتى القول عليها مفصلاً عند ذكر وصولنا إليها ان شاء الله . وبين مدينة بلّرم هذه ومدينة مسينى توجد المدن الآتية واقعة على ساحل البحر غربى هذه الجزيرة وهي مدينة ثرمة وليبري وبقطش وجفلوذ والقارونية وقلعة القوارب وميلاص وجطين (١) وشنت ماركو . وبين مسينى وبلرم على سـيف البحر شرقى الجزيرة وجنوبيها تقع البلدان الآتية . على الترتيب الآتى هكذا . مدينة طبرمين بشرقى مدينة مسينى على مرحلة منها - وهى مدينة أزلية قديمة من أشرف البلاد وأعيانها (٢) ، وقلعة حصينة من اصول القلاع وأركانها ، وهى على جبل مطل على البحر يسمى جبل الطور (٣) وفيها كما حدثنى ابو عبد الله الصقلى الفليسوف (٤) ملعب من ملاعب الروم القديمة كأنه شعب بوّان الذى يقول فيه ابو الطيب المتنبى

(١) ينسب إليها على بن عبد الله الجطيني كما قال ياقوت

(٢) نزهة المشاق (٣) نزهة المشتاق (٤) سيفه الرحالة قريباً

مغاني الشعب طيبا في المغنى
 بمنزلة الربيع من الزمان
 ملاعب رجنة لو سار فيها
 سليمان لسار بترجمان
 طبّت فرساننا والخيل حتى
 خشيت وان كرم من الحران^(١)
 غدونا تنفض الاغصان فيه
 على أعرافها مثل الجمان^(٢)
 فسرت وقد حجب الشمس عني
 وجئت من الضياء بما كنفاني^(٣)

-
- (١) يقول : دعت هذه المغاني لطيبها خيلنا وفرساننا الى
 المقام فاستهوت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت على خيلنا أن
 تقف فلا تبرح هذا المكان وان كانت كريمة لا يمر فيها الحران
 (٢) يقول انه كثير الامواه والشجر فالندي يسقط على
 اشجاره ليلا فهي تنفض على اعراف الخيل مثل الجمان الى الفضة
 (٣) يقول سرت وهذه الاشجار تحجب عني حر الشمس
 وتلقى على من الضياء ما احتاجه

والقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفر من البنان (١)

لها ثمر تشير اليك منها
بأشربة وقفن بلا أواني (٢)

وامواه يصل بها حصاها
حليل الحلي في أيدي الغواني

وقد فتح المسلمون هذه المدينة أيام ابراهيم بن احمد
ابن الاغلب - وكان عادلاً حازماً في اموره ، آمن البلاد ،
وعصف بأهل البغى والفساد (٣) وبنى الحصون والمحارس
على سواحل البحر حتى كان توقد النار من سبته فينتهي

(١) الشرق الشمس يقول هذا الشجر كثير الورق ملثف
فضوء الشمس يدخل من خلاله فيكون على الثياب كأنه الدنانير
غير أنه يفر من الاصابع (٢) يقول هذه الاغصان ثمارها
رقية فكأنها لذلك اشربة قائمة بنفسوسها ولا اواني لها وهذا
ينظر الى قول البحترى -

يخنى الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير اناء
(٣) اتى عليهم واهلكهم

اخذبر الى الاسكندرية في الليلة الواحدة^(١) وذلك^(٢) لسبع بقين من شعبان سنة تسع وثمانين ومائتين الموافق اول أغشت الرومى سنة اثنتين وتسعمائة . وكان لفتح هذا البلد اسوأ وقع فى نفس الانبرور صاحب القسطنطينية حتى بقي سبعة أيام لا يلبس التاج وقال لا يلبس التاج محزون^(٣) — ثم مدينة قطانية على ستة أميال من مدينة لياج الواقعة بينها وبين طبرمين ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر فى سفح جبل النار وتسمى الآن مدينة الفيل لأن فيها طاسما من حجر على صورة فيل كان منصوباً فيما غبر من الأيام على بناء شاهق ثم نقل ونصب داخل المدينة^(٤) وبهذه المدينة الاسواق العامرة، والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والفنادق والحمامات — ثم مدينة سرقوسة^(٥) شرقي مدينة قطانية على مرحلتين كبيرتين

(١) ابن الاثير (٢) أى فتح المسلمين مدينة طبرمين

(٣) ابن الاثير (٤) نزهة المشتاق

(٥) هي مسقط رأس الشاعر ابن حمديس وولده محمد بن حمديس

منها . وهي من مشهورات المدن وأعيان البلاد ، تضرب اليها اكباد الابل من كل حاضر وباد ، وهي على ساحل البحر والبحر محقق بها من جميع جهاتها ، وبها ما بأ كبر المدن من

ذكره العماد الكاتب وقال انه أشعر من والده وأورد له شعراً جزلاً . ولأن وقتها متأخر عن وقت الرحلة لم نتعرض لهما في الرحلة ، وكذلك ينسب اليها ابو عمرو عثمان بن علي بن عمر السرقوسي النحوي قال السلفي كان من العلم بمكان نحواً ولغة وله توالييف في القراءات والمحو والعروض وجاء القاهرة وصارت له حلقة للاقراء في جامع عمرو . وينسب اليها الفقيه ابو القاسم عبدالرحمن بن أبي بكر السرقوسي ذكره العماد في الجزيرة وأورد له شعراً :

وقد جاءت سرقوسة في شعر لابن قلافس السكندري يصف به مركبا سار به الى صقلية قال :

ثم استقلت بي على علاتها	مجنونة سبحت على مجنون
هو جاء تقسم والرياح تقودها	بالنون اما من طعام النون
حتى اذا ما البحر ابدته الصبا	ذا وجنة بالموج ذات غضون
القت به النكباء راحة طائث	قلبت ظهور مشاهد لبطون
وتكفلت سرقوسة بأمامنا	في ملجأ للخائنين أمين

الأسواق والخانات والمساجد والحمامات والمباني الرائقة
والأفنية الواسعة الموثقة ، ولها إقليم كبير طوال كله مزارع
وجنات وأثمار . وقد ما كان بها سرير ملك الروم ، فلما ملك
المسامون بعض الجزيرة نقلت دار الملك الى مدينة قصر يانه الى ان
امتلك المسامون سائر الجزيرة وقد فتح المسامون سرقوسة
هذه رابع عشر رمضان سنة اربع وستين ومائتين الموافق
عشرين ماية الرومى سنة سبع وسبعين وثمانمائة — ثم مدائن
نوطس وشكله ورغوص وبنيرة^(١) وكر كنت^(٢) وشاقه^(٣)

(١) وهي بلد عبد الرحمن بن محمد بن عمر البشيرى الصقلى
ذكره العماد السكاتب فى خريدة العصر واورد له قصيدة مدح بها
رجار (روجر النور مندى) (٢) ينسب اليها محمد بن الحسن
ابن على ابو بكر السكر كنتى الفقيه المالكي قال المقرئى فى كتاب
المقفى كان من الاخيار وفاضل المسلمين قدم الاسكندرية وتوفى
سنة ٥٣٧ (٣) قال ياقوت ينسب اليها ابو عمر عثمان بن حجاج
الشاقى الصقلى من سكان الاسكندرية لقيه السلفى وعلق عنه
وتوفى فى محرم سنة ٥٤٤ وتفق على مذهب مالك على الكبر
وكتب كتباً كثيرة فى الفقه

ومازّر (١) ومرسى على وطرا بنش (٢) ومدائن اخرى
كثيرة (٣) وكلها على ساحل البحر كما اسلفنا عدا مدينة

(١) واليه ينسب ابو عبد الله محمد بن عمر بن محمد التميمي
المازري الفقيه المالكي المحدث قال ابن خلكان هو أحد الاعلام
المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام عليه وشرح صحيح مسلم
شرحاً جيداً سماه كتاب المعلم نفوائد كتاب مسلم وعليه بنى
القاضي عياض كتاب الاكمال . وله في الادب كتب متعددة وله
كتاب ايضاح المحصول في برهان الاصول وكان فاضلاً متفناً
وتوفي في الثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة ست وثلاثين
وخمسة وعمره ثلاث وثمانون سنة

(٢) ينسب اليها عبد الرحمن بن أبي العباس الكاتب الطرابنشي
اورد له العماد الكاتب في الخريدة ابياتاً جزلة في وصف منزله
وكذلك ينسب اليها ابو الحسن بن عبد الله الطرابنشي ذكره
العماد ايضاً واورد له شعراً ، وسليمان بن محمد الطرابنشي ذكره ابن
القطاع في الدرة الخطيرة .

(٣) ومن مدائن صقلية مدينتا سمنطار وبلنوبة ذكرهما
ياقوت قال ومن الاولى ابو بكر عتيق السمنطاري الرجل الصالح

العابد له كتاب كبير في الرقائق وكتاب دليل القاصدين يزيد على عشرة مجلدات قال : قال ابن القطاع . العابد ابو بكر عتيق بن على بن داود المعروف بالسمنطاري احد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العاملين ، ومن رفض الاولى ولم يتعلق منها بسبب ، وطلب الاخرى وبالغ في الطلب ، وسافر الى الحجاز فحج وساح في البلدان من ارض اليمن والشام الى ارض فارس وخراسان ولقي من بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فنكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناه على حروف المعجم في غاية الفصاحة وله في الرقائق واخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق الى مثله في نهاية الملاحظة وفي الفقه والحديث تأليف حسان في غاية الترتيب والبيان وله شعر في الزهد ومكائد الزمان - ومنه قوله

فتن أقبلت وقوم غفول وزمان على الايام يصـول
ركدت فيه لا تريد زوالا عم فيها الفساد والتضليل
ايها الخائن الذي شأنه الانم م وكسب الحرام ما ذا تقول
بعت دار الخلود بالثمن البخس م بدنيا عما قريب تزول
قال وقد توفي لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٤٦٤ - قال
ياقوت والي بلنوبة ينسب ابو الحسن على بن عبدالرحمن واخوه

رغوص فان بينها وبين البحر نحو ا من اثني عشر ميلا —
 اما مدينة قَصْرِيَّانِه فهى فى وسط الجزيرة على سن جبل
 وهى مدينة ازلية قديمة ، وقد كان فيها سرير ملك الروم
 نقل اليها كما أسلفنا بعد أن ملك المسلمون مدينة سرقوسة
 لحصانتها ، وقد فتح المسلمون هذه المدينة يوم الخميس
 منتصف شوال سنة اربع واربعين ومائتين الموافق سابع
 يناير الرومى سنة تسع وخمسين وثمانائة ، ولما فتحها العباس
 الأغلبي بنى فيها فى الحال مسجدا ونصب فيه منبرا وخطب
 فيه يوم الجمعة وذل الروم بصقلية يومئذ ذلا عظيما .

« وبعد » فهذا الذى ذكرنا من بلدان هذه الجزيرة
 انما هو غيض من فيض ونحن اذا حاولنا ذكر سائر المدن

عبد العزيز الصقلي البلمنوبى القائل

بحق المحبة لا تجفنى	فانى اليك مشوق مشوق
ولا تنس حق الوداد القديم	فذلك عهد وثيق وثيق
وكن ما حييت شفيقا على	فانى عليك شفيق شفيق
ولا تهمنى فيما أقول	فوالله انى صدوق صدوق

والقرى والقلاع المعروفة في هذه الجزيرة ، لا احتجنا الى اسفار كثيرة ، وفي هذا القدر غناء .

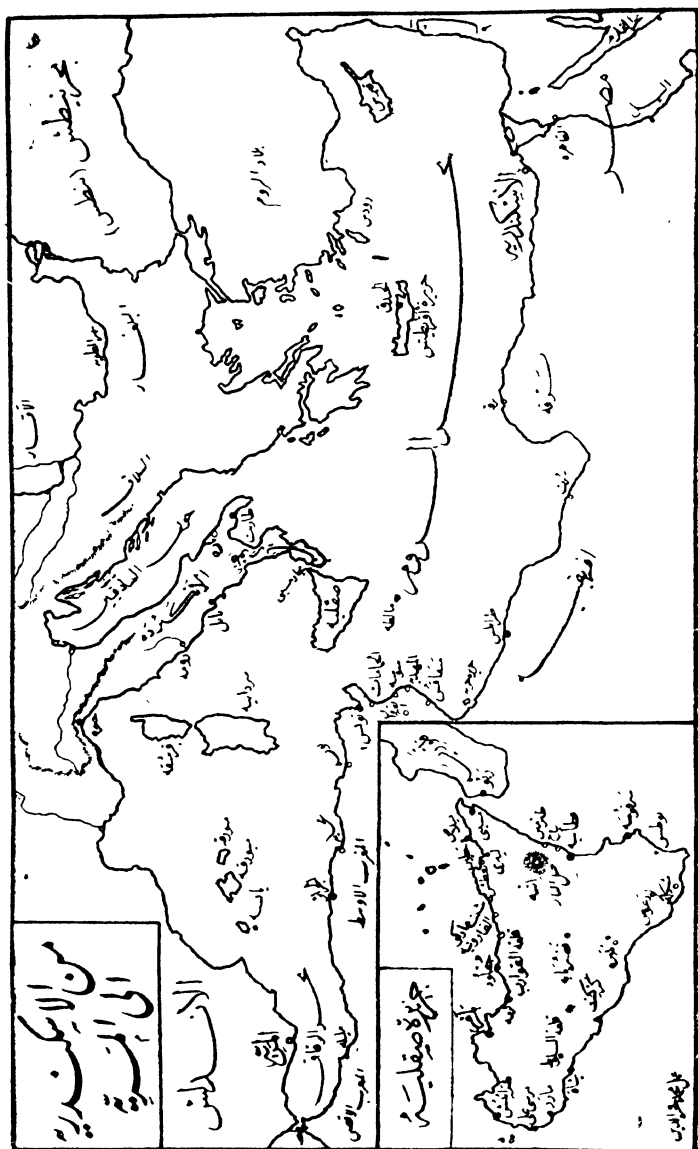
وقد رأينا من تمام الفائدة أن نصور للناظر في هذه الرسالة جزيرة صقلية وبعض بلدانها المشهورة وبلاد قلورية ومدينة ريو وجزائر اقريطش وسردينية وقرشقة وميورقة ومتورقة ويابسة ومدينتي الاسكندرية والمرية وبالجملة كل ما جاء له ذكر في هذه الرسالة .

وقد آن لنا أن نرجع الى ما نحن بصدده

مدينة مسيني

اما مدينة مسيني فهي في ركن من الجزيرة بشرقيها^(١) مستندة الى جبال قد انتظمت حضيضها وخذادتها والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها ، ومرساها أعجب مراسي البلاد البحرية كما اسلفنا لأن المراكب الكبار

(١) ابن جبير



تدنو فيه من البر حتى تكاد تمسكه ولا يحتاج الى زواريق
في وسطها ولا في تفرينها الا ما كان مرسياً على البعد منها
يسيراً فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد في مرابطها
واصطبالاتها وذلك لا فراط العمق فيها (١)

وهذه مسيني هي رأس جزيرة صقلية وهي كثيرة
العماير والضياع، وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين
ذات اثمار كثيرة ولها أنهار غزيرة عليها ارحاء جمّة (٢)

* * *

ولما نزلت هذه المدينة سامت امتعى الى أحد الحمالين
وقصدت معه الى أحد الفنادق فذهب بي الى فندق قائم
على جبل مطل على المدينة، وكان لأحد مغاربة أفريقية، فاحتفى
بي صاحبه وبالغ في اكرامي واحتفل في راحتي حتى أنساني
برقة حاشيته وطيب أنسه مجاشم السفر وذل الاغتراب - وقد
صادفت في هذا الفندق أبا عبد الله الصقلي الفيلسوف
وكان قد نهد حفظه الله من بلرم الى مسيني لما علم بقدومي

فكمل انسى به وعراى من الغبطة والسرور مالا يقوم بالعبارة عنه بيان . ولا يروم اطلاع فح لسان . ولا سيما حين أخبرنى ابو عبدالله انه ينتوى الذهب الى الانداس وهي منتواى ومقصدى .

* * *

ولما رأيت ابا عبدالله - وكنت لم اره قبل ذلك بيدانى سمعت بفضله الجم وعلمه الغزير حتى شفقت برؤيته - والأذن تعشق قبل العين احيانا - رأيت منه رجلا تشد اليه الرحال ، وتضرب الى علمه اكباد الأبال ، ويصاب عنده مقطع الحق واليقين ، ويُذفى لديه مفصل السداد فى علوم الحكمة والدين من مبلغ الاعراب انى بعدها

شاهدت رسطاليس والاسكندرا

واقيت كل الفاضلين كأئما

رد الاله نفوسهم والاعصرا

ولا جرم فان ابا عبد الله فيلسوف عصره . وواحد قطره . وهو فى علم الطب والحكمة منقطع النظير لا تسكاد

تفتح العين على مثله . وقد حذق اللسان الاغريقى واحكم
معرفة حتى كأنه من أهله . وهو فى الادب منظومه
ومنتوره نادرة الفلك وبكر عطار د .

ولقد أقيمت فى مسينى ثلاثة ايام بلياليها أنسانى فيها
ابو عبد الله الصقلى الفيلسوف بأدبه وظرفه ورقة حاشيته
ما يعرفو الغريب فى البلد النازح من الوحشة والانتقباض .
ثم علمنا فى اليوم الرابع لمقامنا أن قد ارست على ميناء هذا
البلد سفينة كبيرة قادمة من القسطنطينية العظمى قاصدة
الى بر الاندلس : فاعتزمت أنا وأبو عبد الله أن نساافر فيها ،
وكان هذا العزم من تمام فضل الله علينا وحسن توفيقه اذ
أصبنا فى هذا المركب عند نزولنا فيه مُنمية النفس ومطمح
الروح - فضل المدنية - التى ضرب الدهر بينى وبينها أياما كانت
على قلمها كأنها شهور بل أعوام ، وكان معها صاحبها علم
المدنية وقلَم الرومية وهن كعالمات ممن حذقن الغناء ونفن
فيه بعد أن تعلمنه فى المدينه المشرفة على صاحبها افضل

الصلاة وأنتم التسليم ، وهذه قلم كما أخبرتنى انداسية الاصل
رومية من سبي البَشْكَنس وحملت صغيرة الى المشرق فوفقت
بالمدينة المنورة ولقنت هنالك الغناء ، ثم اشتهرت مع علم
لامير المؤمنين بالاندلس عبد الرحمن الناصر

وقد أخبرتنى فضل أن المركب الذى كانت فيه لما
ارسي على مسينى بعد ارسائه على ريو لشراء ما يحتاج اليه
من الميرة والطعام القى فى روعها هى ومن معها أن ينزلن
فى مسينى ويتركن هذا المركب - وهو لامير المؤمنين
عبد الرحمن الناصر - خشية أن يأسره ومن فيه عمال المعز
لدين الله الفاطمى لان بلاد صقلية احدى ولايات المعز ، وقد
علمت أن المركب كان قد تحرش وهو ذاهب الى المشرق
بمركب للمعز ، فأحفظ المعز هذا الامر واخذه منه المقيم
المقعد^(١) وحمله على أن يطوى كسجه^(٢) على النار من
الناصر - ثم أقامت فضل هذه المديدة فى فندق من فنادقها،

فى رَ بْض من ارباضنها ، فقلت يا عجباً كل العجب
أليس غريباً ان نكون ببلدة كلانا بها ثاوٍ ولا نتكلم

* * *

أما نبأ هذه السفينة الرومية فذلك أن قسطنطين بن
ليون انبرور الروم « امبراطور دولة الرومان الشرقية »
كان قد اهدى منذ ثمانِ حَجَج الى امير المؤمنين عبد الرحمن
الناصر هدايا ذات قدر عظيم ، يتقرب بها اليه ، ويمصّبص
بذنبه لديه ^(١) واستدفاعاً لمكره وكيده ، واستجلاباً للعطفه
ووده ، واستظهاراً به على أخذ بلاده « بلاد قسطنطين »
المعز لدين الله ^(٢) وكان من هذه الهدايا كتاب ديستقوريدس
الطبيب ، مصور الحشائش العجيب ، وكتاب هرويش
« هيرودوتس » المؤرخ الرومى العظيم ، وكان الكتاب
الاول مكتوباً بالاغريقى ، وهو اليونانى القديم ، والكتاب

(١) يتملقه - والبصصة فى الاصل تحريك الكلب ذنبه
طمعاً أو خوفاً (٢) كان الفاطميون زمن هذه الرحلة فى حروب
لا تكاد تنقطع بينهم وبين الرومان ، وقد أخذوا من الرومان
صقلية والجزء الجنوبى من ايطالية - راجع الكتاب على صقلية

الثانى كان مكتوبا باللسان اللطينى . وكتب قسطنطين فيما كتب اذذاك الى الناصر « ان كتاب ديستوريدس لا تجتنى فائده الا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ويعرف اشخاص تلك الادوية ، فان كان فى بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب . وأما كتاب هروشيئ فمعدك فى بلدك من اللطينيين من يقرؤه باللسان اللطينى وان كشفتم عنه نقلوه اليك من اللطينى الى اللسان العربى » - ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الاندلس من يعرف الاغريقى ، فبقي كتاب ديستوريدس فى خزانة الناصر كما هو لم يترجم الى العربى ، فلما ولى أمر الروم ارمانىوس بن قسطنطين تقدم اليه الناصر ^(١) بأن يبعث رجلا يعرف الاغريقى واللطينى ليعلم له عبيد أيكونون مترجمين ^(٢) فأرسل ارمانىوس فى هذا المركب راهبا عظيما يسمى نقولا . وقد أزلت لك أن ابا عبد الله الصقلى يحسن الاغريقى احسانه للطب والفلسفة والنجوم ، وقد كان اخبرنى أن

(١) أمره (٢) طبقات الاطباء

الناصر أرسل اليه يستحثه على الوفود اليه ليكون في خدمته ^(١) فكان ذلك سبباً في انعقاد الصحبة بيننا وبين هذا الراهب، وقد اصبنا منه رجلاً حديداً يثاظر يف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب .

* * *

وقد ألفينا في هذا المركب طبيين اندلسيين كانا قد رحلا الى المشرق منذ سنين واقاما هنالك نيفاً وعشرين سنة ودخلا دار السلام « بغداد » وقرأ فيها على ثابت بن سنان ابن ثابت بن قرة كتب جالينوس ثم قفلا راجعين الى الاندلس مسقط رأسهما . ونزلا في هذا المركب من أحد الثغور ، وهما أخوان يسمى احدهما عمر والثاني احمد ^(٢)

(١) ذكر ابن جلجل ان أبا عبد الله الصقلي كان في الاندلس أيام الناصر مع الراهب نقولا وقال عنه انه طبيب فاضل وانه يعرف الاغريق (٢) جاء في طبقات الاطباء أن هذين أحمد وعمر سافرا من الاندلس الى المشرق سنة ٣٣٠ هجرية ثم رجعا اليها سنة ٣٥١ واستخلصهما الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر لنفسه

وهما ابنا يونس بن احمد الحراني الطبيب المشهور ، وقد
اخباراني ان كتاب ديستوريدس هذا كان قد ترجمه بدار
السلام ايام جعفر المتوكل الخليفة العباسي اصطفى بن بسيل
المرجم من الاغريقى الى العربى ، وتصفحه حنين بن
اسحاق فصصح الترجمة وأجازها - قالوا : وقد ورد هذا
الكتاب الى بلادنا « الاندلس » وهو على ترجمة اصطفى (١)
وقد قرأناه وصححنا كثيراً من أسماء العقاقير التي لم يعرف
لها اصطفى اسماً في العربية ، وقد انتفع كثير من أهل
المشرق وأهل الاندلس بالمعروف منه - وفي الاندلس اليوم
من اخواننا الاطباء نفر توفروا على هذا الكتاب يصححون
اسماء عقاقيره ويعينون اشخاصها ، ومنهم اخونا البسباسي
والشجار وابو عثمان اليابسة ومحمد بن سعيد الطبيب (٢) .
وكأننا بسيدنا الناصر ادام الله تأييده وقد ابى الا ان يقر
الامر في نصابه ، ويغمد السيف في قرابه ، ويتم امر هذا

(١) طبقات الاطباء في الكلام علي ابن جليل

(٢) طبقات الاطباء

الكتاب على مابه ، فطلب الى ارمانوس ما طلب ، وكل ذلك من سيدنا فضل عناية منه بكل ما يجدى على بلاده ويسمو بها صعداً الى ابعد مراتب العظمة الذهنية كما أبعدت به وباسلافه فى سائر ضروب الحضارة ، وذلك لما فطره الله عليه من العزيمة النافذة ، والهمة الطموح البعيدة المرمى ، فلا يتعاضمه امر ، ولا تقف همته دون غاية ، وحتى لا يحيك فى صدر انسان ان خلفاء بنى العباس فى المشرق ، أو منافسيه الفاطميين فى افريقية قد سبقوه الى شىء لم يسبقهم هو اليه . وأنت تعلم أن هذه الدول الاسلامية الثلاث ^(١) هى اعظم دول الارض اليوم شأننا ، واضخمها سلطانا . والقابضة على زمام الامور . والمالكة اخصب البلاد من هذا المعمور . والمستبحر عمران بلادها الى اكثر من المتوقع المنظور . والتي تعد سائر دول الارض من هذه الامم الحمراء كأنها تبع لها وعيال عليها . فتراها لذلك تنهالك

(١) الدولة العباسية والدولة الفاطمية والدولة الأموية

في كل آونة على الازدلاف اليها ، وتستنزل رضاها بالهدايا
والتحف ، وغريب النفائس والطُرُف ، وتستصرخها بعض^ة
على بعض فتكون الختوف ، أسبق من المغضوب عليهم
من السيوف

إنّا اذا ما أتانّا صارخ فزِع
كان الصراخ له قرع الظنايب^(١)

ومن ثم ترى هذه الدول العظمى تتسامى في كل
ما يكسبها حسن الاثر ، وجميل الذكر ، ويملاً مسامع الدهر
حمداً وثناء ، وينبض له قلب الدنيا خفراً وعلاء ، فتراها لذلك
آخذةً بيد العلم والعماء ، ماثلة باعطياتها أيدي الشعر
والشعراء ، حتى العلوم الفلسفية بجميع ضروبها من الهية
وطبيعية ورياضية وطبية وفلكية تعضدها وتغري القائمين

(٢) البيت لسلامة بن جندل - يقول : اذا أتانّا مستغيث
كانت اغاثته الجد في نصرته يقال قرع لذلك الأمر ظنبونه اذا
جد فيه والظنبوب ، هو طرف العظم اليابس من الساق - فالشاعر
جعل قرع الصوت على ساق الخف في زجر الفرس قرطاً للظنبوب

عليها بالاستزادة منها والتقصى في البحث عن غوامضها ،
وتظهر الرغبة في الحصول على ما أخذها من ملوك الروم
الذين حشدت في خزائن كتبهم توالييف فلاسفة اليونان
الاقدمين .

ولقد افلعت بنا السفينة باسم الله مجراها من ميناء
مسينى ، وبكرت مع البازى عليه سواد ، في فجر يوم الجمعة
سَلَخ ربيع الاول ، وذلك لثلاث عشر ليلة خلت من
شهر جونيئو الرومى سنة ست وخمسين وتسعمائة من مولد
السيد المسيح عليه الصلاة والسلام . وكان البحر هادئا ،
والنسيم قاترا غليلا ، وكانت قبة فضل ومن معها برأى منا
ومسمع ، وكان معنا اديب من ادباء صقلية لم نكن ندرى
أين وجهته ولا كنه نزل بعد ذلك فى جزيرة ميورقة ، وكان
قد ندّ منه عقيب افلاطنا من مسينى امر افضى الى حديث
لا علمنا اذا نحن اوردناه فى هذه الرسالة تطرية للقول ،
وذلك انا بعد ان صلينا الصبح حاضرة وصلى معنا هذا

الاديب الصقلي رأيناه وقد انتحي ناحية وأخذ يصطحب
ويلح على ابنة العنب يشربها صرفاً لا يقتلها بالماء، فانكرت
عليه ذلك انكاراً شديداً وقلت له : ما تصنع بالخر، وان
اولها مروان آخرها لسكر، فقال : لا اقول لك الا ما قال
الاخطل لعبد الملك بن مروان اذ قال له عبد الملك مثل قولك
هذا فقال له الاخطل : واسكن بين هاتين لمنزلة ما ملك
امير المؤمنين فيها الا كعلقة ماء من الفرات بالا صبيع

ثم انشد الاخطل

اذا ما نديمي عاتني ثم عاتني

ثلاث زجاجات لهن هدير

خرجت أجر الذيل تيهها كأنني

عليك أمير المؤمنين أمير

« وبعد » فله ذلك الطائر الفردوسي البديع الذي كأنه

روح هبط على هذه الغبراء من المحل الارفع ومعه تلك
الهديّة التي لا هديّة مثلها ، تلك البذور الثلاث ^(١) التي

(١) نشير بذلك الى خرافة جميلة ذكرها المسعودي في كتابه

مروج الذهب وهي أن أحد ملوك الهند الاقدمين كان جالسا ذات يوم في قصره واخوته حوله فأخذت عينه طائراً قد أفرخ في أعلا قصره ورآه يضرب بجناحيه ويصيح فتأمل الملك ذلك فنظر الى حية تنساب الى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر فدعا الملك بقوس فرمى الحية فصرعها وسلمت فراخ الطائر فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه في منقاره حبة وفي مخلايه حبتان وجاء الى الملك وألقى ما كان في منقاره ومخلايه والملك يرمقه فوقع الحب بين يدي الملك فتأمله وقال ما ألقى هذا الطائر ما ألقى الا انه اراد بلا شك مكافأتنا على فعلنا به فاخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في اقليمه فقال جليس من جلسائه حكيم وقد نظر الى حيرة الملك في الحب أيها الملك ينبغي أن يودع النبات ارحام الارض فانها تخرج كنه ما فيه فتقف على الغاية منه واداء ما في مخزونه ومكنونه فدعا بالاكرة وامرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه فزرع فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب وهم يرمقونه والملك يراعيه الى أن انتهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفاً أن يكون متلفاً فأمر الملك بمصر مائه وان يودع في اوان وافراد حب منه وتركه على حاله فلما صار في الآنية عصيراً هدر وقذف بالزبد وفاحت له

اظنه الا انه اختلسها من عنب الجنة ليتحفنا بها فنز درعها
ونفزع الى عصيرها في هذه الحياة المحزونة المفعمة آلاما

روائح عبقة فقال الملك على بشيخ فأتى به فلدد له من ذلك في اثناء
فراة لونا عجيباً ومنظراً كاملاً ولونا ياقوتيا احمر وشمعا نيراً ثم
سقوا الشيخ فما شرب ثلاثاً حتى مال وأرخی من مآزره الفضول
وحرك رأسه ووقع برجليه فطرب ورفع عقيرته يتغني فقال
الملك هذا شراب يذهب بالعقل وأخاف أن يكون قاتلاً الا ترى
الى الشيخ كيف عاد في حال الصبي وسلطان الدم وقوة الشباب
ثم أمر الملك به فزيد فسكر الشيخ فنام فقال الملك هلك ثم
ان الشيخ افاق وطلب الزيادة من الشراب وقال لقد شربته
فكشفت عنى الغموم وازال عن ساحتي الاحزان والهموم وما
اراد الطائر الا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف فقال الملك هذا
شراب اشرف أهل الارض وذلك انه رأى شيخاً قد حسن وقوى
حيله وانبسط في نفسه وطرب في حال طمينة الحزن وسلطان
البلغم وجاد هضمه وجاءه النوم وصفا لونه واعتريته اريحية فأمر
الملك أن يمنع العامة من ذلك وقال هذا شراب المملوك وأنا السبب
فيه فان كان فلا يشربه غيرى فاستعمله الملك بقية أيامه ثم نما في
أيدي الناس واستعملوه

ليسرّي عنا ويجلو منا صداً الحس ، وينفى الهم عن ساحة
النفس

ان الذي جعل الهموم عقارباً جعل المدام حقيقة درياقها

أقتلاهمى بصرف عقار واتركا الدهر فما شاء كانا
إنّ للمكروه لذعة همّ فاذا دام على المرء هانا

اذا ما أتت دون اللهاة من الفتى

دعاهم من صدره برحيل

فقلت له ولكنها قبّحها الله تسيء من المرء أخلاقه ،
وتحمل النابه ، وترفعه الى اسفل ، وتهوى بالشرف الرفيع
الى الحضيض الا وهدهد ، والله ذلك القرشى حين يقول
من تفرع الكأس اللثيمة سنّه

فلا بد يوماً أن يسيء ويجهلا

ولم أر مطلوباً أخس غنيمة

واوضع للاشراف منها واخلا

فسرعان ما أنشد
 اذا صدمتني الكأس ابدت محاسنى
 ولم يخش ندمانى أذاتى ولا بخلى
 ولست بفحاش عليه وان أسا
 وما شكل من آذى نداماه من شكلى
 ثم قال : والحر لذلک خلیقة ان لا یشر بها الا الملوك
 وأشباه الملوك ، أما السوقة والحشو والغوغاء والحمقى ومن
 الیهم فیجب أن یصلّبوأ أو یقتلوا أو تُقَطَّع أیدیهم
 وأرجلهم اذا هم شربوها
 والحر قد یشر بها معشر لیسوا اذا عدّوا با کفائها

* * *

وجدت أقل الناس عقلا اذا انتشى
 اقلهم عقلا اذا كان صاحیا
 تزيد حُمَیَّاها السفیه سفاهة
 وتترك اخلاق الکرم کما هیا
 وبودی لو أن الکأس بألف والحیر فی وجه الاسد

حتى لا يشرب الا كريم ، ولا ينكح الا شجاع
اجل عن اللثام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامي
ورحم الله أبا بكر الهذلي اذ يقول للمنصور وقد سأله
عن النبذ : لقد تبادت فيه السفهاء ، حتى كرهته العلماء
فقلت له أما تخشى الله يوم الحساب ، فقال

اذا صليت خمسا كل يوم فان الله يغفر لي فسوقي
ولم أشرك برب الناس شيئا فقد امسكت بالدين الوثيق
فهذا الدين ليس به خفاء دعوني من بنيات الطريق

الا لا يغرنك ذوسجدة يظل بها دائما يخدع
وما للتعق لزمت وجهه ولكن ليأتني مستودع
ثلاثون الفا حواها السجود فليست الى ربها ترجع
ورد اخو الكاس ما عنده وما كنت في رده اطمع

اما النبذ فلا يذرك شارب
واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء

قوم يداوون عما في نفوسهم
حتى اذا استمكنوا كانوا هم الداء

مشمرين الى انصاف سوقهم
هم الذئاب وقد يدعون قراء

فقال أبو عبد الله الفيلسوف : الشراب ضار ونافع، اما
أنه نافع فللبدن بأشراقه وتقوية الحرارة الغريزية وانهاشها
وانضاج الرطوبات وتنقيح المجارى وإزالة سددتها وتقوية
الهضم وانهارة الدم وادرار الصفراء وترطيبها — وللنفس
بانبساطها وتفتيح آمالها وتشجيعها وقتل الهم والفكر الفاسد
ومن ثم كان أنفع الأشياء للماليخوليا ثم هو يؤدم بين
القلب والقاب ، ويبعث الشوق القديم الذى قد ضل في
الاحشاء — وكل أولئك اذا استعمل على الوجه الذى ينبغى
والا استحال هذه المنافع مضار ، فترى عوض السرور هما
وغماً وضجراً وسوء خلق ، وعوض الصحة مرضاً مزمناً
أو موتاً فجائياً ، وان ادامة الشراب تبلى الذهن وترخي
العصب وتوهن قوى الدماغ وتورث الرعشة والتشنج ،

وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينبغي أن
انجب كان الولد أحق

« وبعد » فإن أصدق ما جاء في الخمر قول الله جل
شأنه : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع
للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما . ثم يقول سبحانه يصف
خمر الجنة « لا فيها غول »^(١) ولا هم عنها ينزفون « فكان
السرف في تحريمها هو أنها تغتال عـ ولنا وتشربها وتورثها
الخبيل والصداع كما قال الأول

وما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول
وما ألطف قول بعض الظرفاء وقد ترك النبيذ فقيل

(١) الغول الصداع والخمار ، ولا ينزفون يسكرون وتذهب
عقولهم ، والاثم في قوله جل شأنه وإثمهما أكبر من نفعهما فهو
ما يترتب على اقتراف الذنوب والمعاصي من المضار قال أبو نواس
ولقد نهزت مع الفواة بدلوهم

واسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصارة كل ذاك أنام

له كيف تتركه وهو رسول السرور الى القلب فقال نعم
ولكنه بنس الرسول يُبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس
ويشبه ذلك قول المجنون لملك من الملوك وقد استظرفه
واختار أن يكون نديماً له وعرض عليه الشراب فقال المجنون
أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلي وأنا أشربه لأصير
مثل من ! وقال عبد العزيز بن مروان لنُصَيْب الشاعر يوماً
هل لك فيما يُشير المحادثة - يريد المنادمة - قال أصلح الله
الأمير الشَّعْرَ مفلفل واللون مرمد ولم أقعد اليك بكرم
عنصر ولا بحسن منظر وانما هو عقلي ولساني فان رأيت
الآن تفرق بينهما فافعل . وقيل لاعرابي لم لا تشرب ؟ فقال
لا أشرب ما يشرب عقلي .

وناهيكم بعد ذلك بما يستتبعه ادمان الشراب من
الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن السكر والعريضة ،
وإيقاع العداوة والبغضاء والموجدة ، ومن تقبيح الحسن
وتحسين القبيح واغرائه بالفسوق وتعدى حدود الله وقلة
الاكتران لها - وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ

وقد أجمع الحكماء قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينبغي أن
انجب كان الولد أحق

« وبعد » فإن أصدق ما جاء في الخمر قول الله جل
شأنه : يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع
للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما . ثم يقول سبحانه يصف
خمر الجنة « لا فيها غول »^(١) ولا هم عنها ينزفون « فكان
السرف في تحريمها هو أنها تفتال عـ ولنا وتشربها وتورثها
الخبيل والصداع كما قال الأول

وما زالت الخمر تفتالنا وتذهب بالأول الأول
وما أطف قول بعض الظرفاء وقد ترك النبيذ فقل

(١) الغول الصداع والخمار ، ولا ينزفون يسكرون وتذهب
عقولهم ، والاثم في قوله جل شأنه وإثمهما أكبر من نفعهما فهو
ما يترتب على اقتراف الذنوب والمعاصي من المضار قال أبو نواس
ولقد نهزت مع الفواة بدلوهم

واسمت سرح اللهو حيث اساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه
فاذا عصارة كل ذاك أثم

له كيف تتركه وهو رسول السرور الى القلب فقال نعم
 واسكنه بئس الرسول يُبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس
 ويشبه ذلك قول المجنون لملك من الملوك وقد استظرفه
 واختار أن يكون نديماً له وعرض عليه الشراب فقال المجنون
 أيها الملك أنت تشرب هذا لتصير مثلي وأنا أشربه لأصير
 مثل من ! وقال عبدالعزیز بن مروان لـنُصَيْب الشاعر يوماً
 هل لك فيما يُثير المحادثة - يريد المنادمة - قال أصلح الله
 الأمير الشَّعَر مفلفل واللون مرمد ولم أقعد اليك بكرم
 عنصر ولا بحسن منظر وانما هو عقلي ولساني فان رأيت
 ألاّ تفرق بينهما فافعل . وقيل لاعرابي لم لا تشرب ؟ فقال
 لا أشرب ما يشرب عقلي

وناهيكم به - بذلك بما يستتبعه ادمان الشراب من
 الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن السكر والعريضة ،
 وإيقاع العداوة والبغضاء والموجدة ، ومن تقبيح الحسن
 وتحسين القبيح واغرائه بالفسوق وتعدى حدود الله وقلة
 الاكتراث لها - وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ

يقول : لا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن : ولقد
مرت اعرابية بقوم يشربون نبيذا فسقّوها فلما شربت
أقداحاً اعترتها أريحية فقالت أيشرب هذا نساؤكم قالوا نعم
قالت إذَنْ زَنِين ورب الكعبة فما يدري أحدكم من أبوه !

* * *

ولاصحاب الشراب ولوع به واستهتار الى الحد الذي
لا يفكرون معه في دين ولا مروءة ، قيل لأبي نواس
اتشرب الخمر قال نعم : اذا اشتري بثمان خنزير قد سرق
حتى يحرم ثلاث مرات وهو القائل

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر

ولا تسقني سرّاً اذا امكن الجهر

فما الغبن الا أن ترائي صاحبا

وما الغنم الا أن يتعقني السكر

وقيل لثمامة لم تشرب الخمر وهي نزيل العقل فقال ان
زال اليوم لا يزول غداً . وباع بعض الاشراف من اصحاب
الشراب ضيعة فقيل له احضر العشيّة للاشهاد فقال لو

كنت ممن يهان بالعشيات لما بعث الضيعة . وقال رجل
 لا آخر منهم لقد وجهت إليك رسولا عشية أمس فلم يجداك
 فقال هذا وقت لا أكاد أجده فيه نفسى . ويقول أحدهم
 وددت أنى أكون بعوضة فأموت تحت قرية نبذ حتى يكون
 موتى فى ظلال نعيم . ولما ولى الحسن بن زيد رضى الله عنه
 المدينة قال لابن هرمة الشاعر : لست كمن باع دينه رجاء
 مدحك أو خوف ذمك فقد رزقنى الله بولادة نبيه صلى الله
 عليه وسلم المادح وجنبنى المقابح وإن من حقه على أن
 لا أغضى على تقصير فى حق ربه وأنا أقسم لئن أتيت بك
 سكران لأضربنك حدا للخمير وحدا للسكر ، ولأزيدن
 لموضع حرمتك بى فليكن تركك ذلك لله نعتن عليها ولا
 تدعها للناس فتوكل اليهم فقال ابن هرمة .

نهانى ابن الرسول عن المدام	وأدبنى بأداب الكرام
وقال لى اصطبر عنها ودعها	لخوف الله لا خوف الأنام
وكيف تصبرى عنها وحي	لها حب تمسكن فى عظامى
أرى طيب الحلال على خبثنا	وطيب النفس فى خبث الحرام

وقيل لرجل من أصحاب الشراب ما تقول في الماء فقال
هو الحياة ويشركني فيه الحمار ، فقيل له فالابن قال مارأيت
الا ذكرت أمي واستحييت قيل فالحمر قال تلك السارة
الباردة شراب أهل الجنة . ودعا الوليد بن يزيد شراعة من
الكوفة وهو من فتيانها فلما قدم عليه قال له اني والله لم
أدعك لا سألك عن قرآن أو لأستفتيك في سنة فقال لو
سألتني عنهما لأصبتني فيها ثورا ، فلم دعوتني قال لأسألك
عن الفتوة فقال انا دهقانها الخبير وعالمها الطبيب فسل
فقال ما تقول في نبذ التمر ، قال اشربه حتى تحمر ، قال فنبيذ
الذن ، قال اشربه حتى تجن ، قال فالذاذي قال احلى من الماذي
قال فنبيذ الزبيب فستر وجهه وقال العظمة لله ، قال فالحمر
قال لا أرى شربها قال ولم قال لاني لا أؤدى شكرها

وهذا قليل من كثير ورحم الله من قال

لم يبلغ الشيخ ابليس ارادته

حتى تكائف في عنقوده العنب

وفي الحق ما يقول ابليس : مهما اعجزني ابن آدم فلن

يمجزني اذا سكر أن آخذ بزمامه فاقوده حيث اشاء واحمله
على ما اريد

* * *

ولربما بلغت جنأية الشراب وادمانه ، إلى ما يأنف
الحيوان الاعجم من اتيانه . رَوَا ان قيس بن عاصم احد
أشراف العرب في الجاهلية كان يتردد عليه تاجر خمر فيبتاع
منه و يقيم الخمر في جواره حتى ينفد ما عنده فشرب قيس
ذات يوم فسكر سكرًا قبيحًا فغذب ابنته وتناول ثوبها
ونظر الى القمر وتكلم بشيء ثم انتهب مال الخمار وأنشأ
يقول :

من تاجر فاجر جاء الاله به
كأن لحيته اذئاب اجال
جاء الخبيث ببيسانية تركت
صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال
فلما صحا أخبر بما قال وما صنم فألى ان لا يذوق خمرًا
أبد الدهر

والسكرارى فعال تضحك وتبكي، فمن ذلك أن سكرانا
وقع على الارض فجاء كلب يلحس فاه فجعل يقول
اخوكم ومولاكم وصاحب سركم
ومن قد نشا فيكم وعاشركم دهرأ
وقال بعضهم كان في دارنا سكران فتمعد على مصلى
فتبرز فيه فأخذت بيده الى المستراح فنام فيه فقالت جاريتي
يا عجبا كل شيء منه مقلوب يتبرز حيث ينام الناس وينام
حيث يتبرز الناس . وان صاحب السكر يصير اما الى فردية
وهو الذى يضحك ويرقص ويحاكي . او الى كلبية وهو الذى
يهارش، أو الى خنزيرة وهو الذى يتقيأ ويتبرز ويتلوث فيهما .
ومن هنا كانت الحمر حقيقة لا تتفق والمروءة والعزة
والكرامة . ولا تجتمع والشرف فى غمد واحد

ومن خصائص الحمر أنها تخرق الكف وتورث
السخاء الكاذب حتى

تري اللخن الشحيح اذا امرت

عليه لئلا فيه فيها مهيما

وكما تكرر الشراب، تكرر التخرق في الكرم والسخاء
فيفضى ذلك على مرّ الايام الى الفقر والفلاكة والشقاء، ويعم
ذلك زوج الشارب وولده وكل من يعول. وان هذه وحدها
لجرمة لا تغتفر، ولو لم يكن ثمة اصحاب الشراب زاجر
غيرها لكان حرّى أن يقام عنها

وقد عرف اصحاب الشراب بسوء العهد وقلة الحفاظ
وانهم اصدقاؤك ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى
تنكب، وما غلت دنانك حتى تنزف، وما رأوك بعيونهم
حتى يفقدوك

ارى كل قوم يحفظون حريمهم

وليس لاصحاب النبىذ حريم

اخاؤهم ما دارت الكاس بينهم

وكلهم رث الحبال سؤم

إذا جثتهم حيوك الفا ورحبوا
وان غبت عنهم ساعة فذميم
فهذا ثنائي لم أقل بجهالة
والـكننى بالفاسقين عليم

وقد تبلغ الخمر بصاحبها الى أن تشوه خلقه فترى
مدمنها يوما وقد عظم أنفه واحمر وتورم كما يقول شاعر فى
حماد الراوية

نعم الفتى لو كان يعرف ربه
ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه
مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه
فبياضه يوم الحساب سواد

أخو الشراب ضائع الصلاة
وضائع الحرمة والحاجات
وحاله من أقبح الحالات
في نفسه والعرس والنبات
أف له أف ألي آفات
خمسة آلاف مؤلفات

وجملة القول ليس بمد قول الله جلّ شأنه وأنتمهما أكبر
من نعمهما مجال لقائل ، والسلام على من اتبع الهدى .

وأنا في ذلك إذ اندفعت فضل المدينة تغنى على عودها
هذه الأبيات

بيد الذي شغف الفؤاد بكم
تفرج ما ألقى من الهم
فاستبقني أن قد كلفت بكم
ثم افعل ما شئت عن علم

قد كان صرم في المات لنا

فمجلت قبل الموت بالصرم

فاستخف غناؤها ابا عبد الله حتى كاد أن يخرج
من جلده فرحا ، وتحرك الراحب واهتز ثم غغم كلمات
ترجمها اليها ابو عبد الله بما يقارب قول الطائي حبيب
بن أوس

ولم افهم معانيها واسكن ورت قلبي فلم اجهل شجاها
فصرت كأني اعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها
ثم اندفعت تغنى

آها على بغدادها وعرافها

وظمائها والسحر من احداقها

ومجالها عند الفرات بأوجه

نبدو اهلها على اطواقها

متبخترات في النعيم كأنما

خلق الهوى المذرى من اخلاقها

نفسى الفداء لها فأى محاسن

فى الدهر تشرق من سنى اشرقها (١)

فأخذ العليج ينشج نشيجا حارا ويبكى بكاء غالبا حتى
اذا سكت عنه البكاء قال ما معناه : لقد هاجت لى داء
دفيننا : ثم سكتَ وسكتت فضل وسكتنا ومضت
السفينة لطيتها

وكان سيرنا فى محاذاة الساحل بحيث نبصره رأى
العين، وصرنا نسرح النظر فى عماثر وقرى متصلة، وحصون
ومعاقل فى قلال الجبال مطلة، وقد ارسل الله إلينا ريحا طيبة
رخاء زجت السفينة تزجية طيبة، فكانت تلك الساعة من
اطيب ما يظفر به السَفر (٢)، فى هذا البحر، وما زلنا فى

(١) الايات لاحدى الجوارى اللائى اشترين من المشرق

لاحد امراء الابدلس واسمها قر ذكرها صاحب نفح الطيب

(٢) المسافرون

انعم حال واطيبها حتى استقام ميزان النهار وقام قائم الظهيرة
واذ ذاك ابصرنا عن يميننا تسع جزائر متجاورات آنسنا فيها
دخاناً يَصْصَاعِدُ من جبلين في جزيرتين من هذه الجزائر ،
فرايت بعض المسافرين وقد ضربوا باذقانهم الارض ، لما ألمَّ
بهم من الذعر ، فقال ابو عبد الله الصقلي لا عليكم أيها
الاخوان ، ولا تكونن قلوبكم كقلوب الطير ، تنمات^(١)
كما ينمات الملح في الماء ، ان هذه البراكين مأمونة الناحية ،
وليست تزفر في النهار الا هذا الدخان الذي ترون ،
أما البركان المخوف فهو ذلك الرابض في الجزيرة الكبرى
« صقلية » وقد اتعدنا عنه والحمد لله ، وهنا سأله بعض
القادمين من المشرق الافاضة في وصف هذه البراكين وسر
تلك الفظائع التي تتوارد اخبارها الى المشرق ، فآخذ
ابو عبد الله يفيض في القول على طريقته الفلسفية ، ولا بأس
اذا نحن اثبتنا هنا زبدة قوله اتماماً للفائدة

* * *

البراكين في صقلية

والجزائر المجاورة لها

وما قاله فلاسفة الاسلام في ذلك

قال ابو عبد الله ما ملخصه : من المعلوم الذي لا خفاء به ان هذه الكرة الارضية السابجة في الفضاء ^(١) بجملتها واجزائها ظاهرها وباطنها طبقات ، ساف فوق ساف ، مختلفة التركيب والخلقة ، فمنها صخور وجبال صلبة ، واحجار وجماميد صلبة ، ورمال جريشة ، وطين رخو ، وتراب لين وسباخ وشورج ، بعضها مختلط ببعض ، أو متجاورة كما قال الله جل شأنه : وفي الارض قطع متجاورات : وهي مختلفة الالوان والطعوم والروائح ، فمن ترابها واحجارها واجبالها حمر وبيض وسود وخضر وزرق وصفر كما قال جل ثناؤه : ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها

(١) اخوان الصفاء - ومن ذلك تعلم ان العرب سبقوا غيرهم

الى القول بكبرية الارض وانها سابجة في الفضاء

وغرايب سود : وهى مع ذلك كثيرة التخلخل والثقب والتجاويف والعروق والجداول والانهار داخلها وخارجها، كثيرة الاهوية والمغارات والكهوف، وفيها من انواع المعادن السائلة والجامدة ما لا يحصى كثرة، وهذه الاهوية والامواه اذا حى جوف الارض بتاثير الشمس فيه كتاثير القمر فى مد البحر وجزره سخنت تلك الامواه ولطفت وتحملت وصارت بخاراً وارتفعت وطلبت مكانا اوسع، فان نكن الارض كثيرة التخلخل تحملت وخرجت تلك البخارات من تلك النوافذ، وان يكن ظاهر الارض شديد التكاثف حصيفا منمها من الخروج وبقيت محتبسة تتموج فى تلك الاهوية لطلب الخروج، وربما انشقت الارض فى موضع منها وخرجت تلك الرياح مفاجأة وانخسف مكانها ويسمع لها دوى وهدة وزلزلة، وان لم تجد لها مخرجا بقيت هناك محتبسة، وتدوم تلك الزلزلة الى أن يبرد جو تلك المغارات والاهوية ويغلظ وتكاثف تلك البخارات وتجتمع اجزاؤها وتستحيل الى ماء وتخر راجعة الى قاع تلك الكهوف

والمغارات . وتمكث زمانا ، وكلما طال وقوفها ازدادت صفاء
وغلظا حتى تصير زئبقا رجراجا وتختلط بتربة تلك المعادن
وتتحد بها ، وقد تستحيل الى كبريت أو نفط أو غيرهما حسب
اختلاف ترب البقاع ، فيكون من ذلك ضروب من الجواهر
المعدنية المختلفة الطوائع — قلنا أن في الجبال جبالا وفي
الارض ارضين يحوفها كهوف ومغارات وأهوية حارة
ملتهبة ، فهذه الكهوف قد تجرى اليها مياه كبريتية أو
نفطية دهنية فتكون مادة لها دائما — فاذا اختنقت هذه
المواد بفعل الحرارة ذهبت مُصعّدا تطلب الخلاص —
فقد تكون هذه المواد دخانا صرفا كما هي حال هذين
البركانين في هاتين الجزيرتين ، وهذا الدخان يخرج بقوة
شديدة حتى لقد يقذف فيه الحجر الكبير فترده ردا قويا
وقد تكون هذه المواد احجاراً محترقة ومواد اخرى كبريتية
ونفطية نارية تخرج كالسيل العرم فلا تمر بشيء الا احرقته
كما يكون من جبل النار الذي في الجزيرة نفسها ، وترى
هذا الجبل يرمى فيما يرمى بجمر كبير كاعدال القطن يقطع

بعضه في البر فيصير حجراً ايض خفيفاً يطفو على وجه الماء خلفته ، والذي يقع في البحر يصير حجراً اسود مثقباً تحك به الارجل في الحمامات ، وهو كذلك خلفته يطفو على الماء ، ومن غريب الامر انه اذا وقع هذا الحجر على حجر احترق ذلك الحجر واشتعل كما يشتعل القطن حتى يصير ذلك الحجر غباراً كالسكر ، أما الحشيش وسائر ضروب النباتات فلا تحترق ، ولا يحترق الا الحجارة والحيوان ، فكانها نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة (١)

هذا ويسمى الاهالى عندنا أحد البركانين الموجودين في هانين الجزيرتين « بركانا » ويسمون الآخر « استنبري » ومعنى بركان واستنبري فيما علمت الرعد والبرق (٢)

وقد لاحظت أن معادن الكبريت الاصفر لا توجد في الاعم الاغلب الا بجانب البراكين ، ففي هانين الجزيرتين معدن كبريت لا يوجد مثله بموضع آخر ، رأيتهم ورأيت القطاع الذين يقطعونه - رأيتهم وقد تمرطت

(١) تحفة الالباب (٢) تقويم البلدان لابي الفداء

شعورهم ونصلت أظفارهم من حره ويدسه ، وهم يذكرون أنهم يجدون في بعض الايام سائلا متميِّعا فيتخذون له في الارض مواضع يجتمع فيها ثم يجدون في غير ذلك الاوان قد تحجر فيقطعونه بالمعاول ، وكذلك ترى بجانب جبل النار الذي في الجزيرة نفسها آبار زيت النفط الذي لا يخرج منها الا في وقت معلوم من السنة - في شهر شباط وشهرين بعده - فتراهم في ذلك الوقت ينزلون في هذه الآبار على درك ويخمر الرجل الذي ينزل فيه رأسه ويسد مسام أنفه (منخريه) وان تنفس في أسفل البئر هلك لساعته ، وما يستخرجونه من هذا الزيت يضعونه في اواني فيعلو الدهن منه وهو المستعمل ، وذلك كله مما يدل على طبيعة هذه الارض الغريبة الشأن ، والله في خلقه شؤون ، سبحانه مالك الملك لا اله غيره .



مدينة بلرم

حضرة جزيرة صقلية

ولقائى أميرها أبا الحسين احمد

كان وصوانا الى مدينة بلرم بعد انفصالنا من مدينة
مسينى بيومين كاملين ، وكان تعريجننا عليها دون قصد منا
اليه ، إذ كانت الريح غير موافقة فى ذلك اليوم وهو يوم
الاحد الخامس عشر من شهر جونيئو الرومى سنة ست
وخمسين وتسعمائة من مولد السيد المسيح ، فاضطررنا أن
نقيم فى هذه المدينة ريث أن تأتى الريح الموافقة ، ولقد
اهتبلت هذه الفرصة فجلت فى المدينة جولة وقفت فيها
على أشياء كان لا بد من اجتلائها ، وقد أسعدنى الحظ
فقابلت اميرها من قبل المعز لدين الله الفاطمى أبا الحسين
احمد بن ابى الحسن الكلبي وجرى بيني وبينه حديث
سأذكره لك بعد أن أتى على وصف هذه المدينة
ان شاء الله

مدينة بلرم هي حضرة جزيرة صقلية . ففيها يقيم الوالى
الذى يوليه الفاطمى وفيها قاضى القضاة وديوان الحسبة ،
ودار الصناعة ، وفى مينائها يربض اسطولها الاعظم ، ومنها
يغزو ويروح مختلفا على ثبج هذا البحر فيغزو ما شاء أن
يغزو من جزائره وعُدوته الشمالية - « جنوب اوربا » -
وهي لذلك كله وبفضل ما أحدثه المسامون فيها من ضروب
العمران تراها من أجمل المدن وأنخمها - فهي بهذه الجزيرة
ام الحضارة ، والجامعة بين الحسنين غضارة ونضارة ،
فما شئت فيها من جمال مخبر ومنظر ، وممراد عيش يانع
أخضر ، تطلع لك بمرأى فتان ، وتمخايل بين ساحات وبسائط
كلها بستان . فسيحة السكك والشوارع ، تروق الابصار
بحسن منظرها البارع ، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف
بالـ كذان ^(١) يشقها نهر ينساب فيها مثل الحية المذعور ،
أو السيف المشهور ، ويطرد فى جنباتها أربع عيون زاخرة
عليها ارحاء كثيرة لا تحصى

بلد اعارته الحمامة طوقها
وكساه حلة ريشة الطاوس
وكانما الانهار في ساحاتها
خمر وكان ساحات الديار كيؤوس^(١)

وهي تنقسم الى خمسة اقسام محدودة متباينة متجاورة
فقسم هو المدينة الكبرى التي تسمى بلرم ، ويسكنها
التجار ، وفيها المسجد الجامع الذي كان في القديم بيعة الروم
وهو الآن لبديع ما فيه من الصنعة والغرائب المبتكرة من
ضروب التصاوير وصنوف التزاويق^(٢) التي ابدعها المسلمون
فيه يعد من أعجب عجائب الدنيا^(٣) النامة عن حذق العرب
ومهارتهم في الصناعة الى الحد الذي لا ورائه ، وفي هذه
المدينة وفي اقسامها الاخرى نيف وثلاثمائة مسجد^(٤) ولم
أر مثل هذا العدد في بلد من البلدان ، ومن غريب الامر

(١) ابن اللبان الشاعر الاندلسي (٢) الادريسي (٣) ذكر
هذا الجامع بما لا يخرج عما ذكرناه نحن كل من الادريسي
وابن حوقل (٤) ابن حوقل

انى كنت واقفا فى جوار دار أحد الفقهاء الاعيان فى هذه
 المدينة وهو ابو محمد القفصى الوثائقى فبصرت قريباً من
 مسجده على مقدار رمية سهم عشرة مساجد ، ومنها
 المسجد تجاه المسجد لا يفصلهما الا الطريق ، وأغرب من
 ذلك أن من بين هذه العشرة المساجد ، والى نحو عشرين
 خطوة من مسجد الفقيه القفصى المذكور مسجداً لا يبنه
 ابتناه ليتفق فيه ، منعزلاً عن أبيه ^(١) ، وهذا عمر ك الله
 مما يستشف الناظر من وراثته ابهة القوم واعتزازهم بساطانهم
 وانهم سادة هذه البلاد ، ولا جرم كان ذلك باعثاً لهم على
 التنافس فى المفاخر والمكارم وسائر خلال الخير والكمال ،
 وهو معنى من المعاني التى يستتبعها الملك والغلب والسلطان ^(٢)
 أما القسم الثانى من أقسام بلرم فهو المعروف بالخلاصة ،
 وهو مقام الوالى وأتباعه ، وليس فيه اسواق ولا فنادق ،
 وبه حمامان ، وفيه مسجد جامع مقتصر صغير ، وفيه حبس
 الوالى ودار صناعة البحر والديوان . - والاقسام الاخرى

(١) ابن حوقل (٢) ابن خلدون فى مقدمته

الثلاثة ، فقسم يعرف بحارة الصقالبة ، وهذا القسم أعمر من القسمين السابقين وأجل ومرسى البحر به ، وآخر يسمى حارة المسجد وثالث يسميه القوم الحارة الجديدة ، وأكثر الاسواق في هذا القسم كسوق الزيانين والصيارفة والصيادلة والخرازين والصياقلة والنحاسين وسوق القمح وسائر الصنائع على اختلافهم ، وفي هذه الحارة الجديدة نحو من خمسين ومائة حاوت لبيع اللحم . وهذا مما يدل على استبحار العمران في هذه الجزيرة ورخاء أهلها وكثرة عديدهم . فسبحان المعز لمن يشاء

ولقد حدثني الفقيه الوثائق حديثاً يجمل بنا ان نجلوه لك الآن قال^(١) : ان المسامين لما فتحوا هذه الجزيرة ،

(١) هذا الحديث من اوله الى آخره انما هو من تلقيننا لفظاً ومعنى وكل ما هذا لك انا اعتمدنا في عصارته التاريخية على ما ترجمه لنا احد اصدقاءنا من كتاب حصار العرب لجوستاف لوبون خاصا بصقلية

وبلاد فلورية^(١) ، من بر الارض الكبيرة^(٢) واستوثق لهم الأمر ، ومدت لهم امم الفرنجة يد الاذعان اخذوا حسب عاداتهم في كل بلاد يفتحونها بنية الاقامة فيها ، واصلاح حال اهلها ، في ان يستنقذوا هذه البلاد من تلك الجمأة المنتنة التي كانت مرتطمة فيها ايام حكم الروم ، فنشروا في البلاد الوية العدل ، وعمدوا الى الزراعة فانتمشت بعد صرعتها ، والى التجارة فهبت من رقدتها ، والى الصناعة فانتاشوها من وهبتها ، ووثب الاهلون وثبة كانا أنشطوا من عقال ، فكثرت الاموال ، واغدودقت الخيرات الى الحد الاقصى ، وافتن الناس اقتنائهم في ضروب الترف والنعيم واتساع العيش والتأنق فيه والتلون بأزهى الوانه . - قال الفقيه : أما عدل المسلمين فانك لتجد نصارى هذه البلاد لا يكاد المسلمون يمتازون عنهم بشيء : فالجميع يرتعون متبجحين متحابين ، وكل متمتع بعيشته وعقيدته

وطقوسه فللنصارى ككنائسهم كما ان للمسلمين مساجدهم ،
 واذا جاء عيد من الاعياد رأيت أعلام النصارى بجانب
 أعلام المسلمين : أما علم النصارى فقد صور فيه صليب
 مذهب في بُهرة ساحة حمراء ، وعلم المسلمين قد رسم فيه
 حصن اسود في ساحة خضراء ^(١) أما نساؤهم فربما رأيتهن
 اليوم «الاحد» وهن ذاهبات الى الكنائس ، وقد تشبهن
 بنساء المسلمين ، لان المغلوب كما تعلم مولع دائماً بتقليد
 الغالب ، فانتقبن بالنقب الملونة ، وانتعلن الاخفاف المذهبة
 ولبسن الحرير الموشى بالذهب ، والتحفن اللحف الرائقة ،
 وتزين بكل ما يزين به المسلمات ^(٢)

ان من يدخل الكنيسة يوما

يلق فيها جاذرا وظيفاء

وليس يطلب من النصارى سوى تلك الاتاة التافهة
 المفروضة عليهم لقاء قومة السلطان على الرعية ، وهي ديناران

(١) حضارة العرب للدكتور جوستاف لوبون

(٢) (٢) ح ٢

يؤديها غنهم ، ودينار واحد يؤديه صناعهم وارباب
الحرف منهم ، أما النساء والاطفال فليس شيء بمفروض
عليهم ^(١) وهم يقرون بانهم لم يذوقوا طعم هذا العيش
الاخضر الا على عهد المسلمين وأما الزراعة فقد شققنا
الانهار، واحتفرنا الجداول ، واقناعليها القناطر الحاجزة ^(٢)
واحيينا الارض الغامرة ، فأخصبت ودرت وربت ،
واخذت زخرفها وازينت ، وجلبنا الى هنا كثيراً من
الاشجار والازهار وضروب النبات التي لم يكن ليعرفها
اهل البلاد الاصليون مثل القطن والقصب وشجر
الزيتون ^(٣) والبردي ^(٤) الذي لا يوجد الا في مصر وكثير
غير ذلك

وأما الصناعة فقد خطت بفضل المسلمين خطوات

(١) جوستاف لوبون (٢) قال الدكتور لوبون ان

العرب هم الذين حفروا الترع التي لاتزال باقية الى الان وهم
الذين اخترعوا الاهوسة ذوات الحواجز وكانت قبلهم مجهولة

(٣) جوستاف لوبون (٤) ابن حوقل

بعميدة المدى فاستثرتنا دقائق الارض ومعادنها من الفضة والنحاس والرخام والحديد، ومهر المسلمون في ضروب الصناعات الشتى الا ان، فخذقوا صنع الحرير والصباغة وما اليها^(١) وكذلك تراهم قد برعوا واربوا وتفوقوا في سائر العلوم الصناعية بلغة الادبية والدينية والفلسفية حتى أن الفرنجة لانبيارهم من براعة المسلمين فيما بلغى يعرفونهم بالسحر^(٢) وما هو عمر ك الله بالسحر، ان هو الا تسنمهم

(١) قال الدكتور لوبون: ان العرب هم الذين أدخلوا في البلاد صناعة الحرير وان في نورمبرج رداء من الحرير مما كان يلبسه امراء صقلية عليه كتابة بحروف كوفية، قال: وكل شيء يبعث على الاعتقاد ان صناعة صباغة الاقشة انما انتشرت في اوروبا من صقلية (٢) اورد الدكتور لوبون هذه الحكاية بعد ان ذكر ان الهمان كانوا ينسبون مخترعات العرب الى السحر قال. في احدى حملات النورماندين الذين طرأوا على صقلية في اواخر ايام العرب في صقلية استكشف الكونت روبرت ويسكرده تمثالا قائما على عمود رخام متوجا بدائرة من البرنز محفور عليها هذه الكلمات « سيكون لي في اول مايو عند طلوع الشمس قاج

ذروة الكمال ، وهوى هذه الامم الجراء الى الحضيض
الاوهـد

والنجم تستصغر الابصار صورته

والذنب للظرف لا للنجم في الصغر

وأما التجارة فلعلك قد شاهدت كثرة السلع والبضائع
المجلوبة الى هذه البلاد ، والحوانيت والمتاجر المتكاثرة في
شوارع البلد ، وكذلك عساك قد أبصرت الحركة المباركة في
مينائنا وعمال المكوس فيها مما تتحقق منه أن الجزيرة قد

ذهبي « فلم يدرك احد مغزى هذه الكلمات غير ان عربيا من
صقلية كان اسيراً لدى الكونت افهم روبرت انه يدرك معناها
الخفي وانه اذا وعده اطلاق سراحه فسرّها له فلما وعده روبرت
نصح له الاعرابي ان يحفر في أول مايو عند طلوع الشمس في
المكان الذي ينتهي اليه ظل التمثال ففعل الكونت ذلك فوجد
كنزاً هائلاً لا تقدر قيمته .

شأت شأواً بعيداً في التجارة بفضل نشاط المسلمين واقدامهم
وبعد همهم ، وكل ذلك بما أثر فيهم روح هذا الدين القويم
وآدابه الالهية .



لقائي الامير ابا الحسين احمد

ابن أبي الحسن الكلبي

والي جزيرة صقلية

اني لجالس مع الفقيه الوثائقي في مسجده بعد أن تغدينا
وصلينا صلاة الظهر ثم اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا اذ
دخل علينا المسجد خادم من قبل الامير ، فذعر الفقيه عند
ما اخذت عينه هذا الخادم ، فذعرت لذعره ، ثم قال الخادم
أن الامير يدعوك الساعة اليه ومعك ضيفك المصري ،
فقلت للفقيه انتم ما يخاف منه فأفرخ روعي ^(١) وقال الان
لا أظن تمت شيئاً اكثر من رغبة الامير في أن يستطلع
منك طلع مصر والمصريين ، واميرنا حفظه الله من خواص
اهل الأدب وعليتهم ، وانه لذو حظ عظيم من رجاحة
العقل وسجاجة الخلق بحب الادباء ويقربهم اليه ويتحدث
معه كما يتحدث النظير مع النظير ، على أن اليوم في صقلية
كأنه عيد من أعياد الاهلين ، اذ كان قد ورد من أيام علي

الامير كتاب من أمير المؤمنين المعز لدين الله يأمر الامير فيه باحصاء اطفال الجزيرة وأن يختتنهم ويكسوهم ويحبوهم بالعطايا في اليوم الذي يختتن فيه ولد أمير المؤمنين ، فكتب الامير خمسة عشر الف طفل ثم اختتن ولده واخوته وقد أمر اليوم باختتان سائر اطفال الجزيرة وخلع عليهم وفرق فيهم مائة الف درهم وخمسين حملا من الصلات وردت عليه من امير المؤمنين ^(١) فكيف نتوقع شرأ من الامير في مثل هذا اليوم المبارك

وقد كان مع الخادم بغلتان فارهتان من مطايا الامير وقد جملتا بالديباج ومُحليتا بالفضة ، فركبت أنا والفقير وسرنا حتى وصلنا الى دور الامارة فوقع عيني على شيء لم تقع على مثله من قبل

قصور كالسكواكب لالامعات

يكدن بضئ للشارى الظلاما

وقبة ملك كأن النجوم م تفضي إليها بأسرارها
لها شرفات كأن الربيع كساها الرياض بانوارها

كأن جن سليمان الذين ولو ابداعها فأدقوا في مغانيها
ولما أن وصلنا الى دور الامارة أشار علينا الخادم بالنزول
وأسمنا الى الحجاب فساروا بنا في ممر مفروش بالحصباء
تخللها الفسيفساء ، ثم سلكوا بنا حدائق فيحاء ، مترامية
الأنحاء ، قد اغلوت فيها الاشجار ، وتعقلت باغصانها
الاطيار . وانسربت فيها الجداول والانهار ، واعشوشبت
فيها النجوم ^(١) والازهار

والجو من ارج الهواء كأنه ثوب يعبر تارة ويمسك
وما زلنا الى انهمينا الى قصر الأمير ، فرجع الحجاب
بعد أن اسمونا الى الحجاب المقربين ، فرق بنا هؤلاء سلما
ينتهى بالراق عليه الى بهو عظيم يلا صدر الناظر إليه مهابة
وجلالا ، فاجتزناه واجتزننا بعده غرفا ومقاصير عدة حتى

(١) كل ما نجم من نبات الارض

انتهينا إلى مجلس الأمير، وناهيك به مجلسا لم أر ما هو أحق
منه بقول من قال :

قصر لو انك قد كحلت بنوره
اعمى لعماد إلى المقام بصيرا
أبصرته فرأيت أبداع منظر
ثم اثنت بناظري محسورا
فظننت انى حالم فى جنة
لما رأيت الملك فيه كبيرا
تجرى الخواطر مطلقات أعنة
فيه فتكبو عن مداه قصورا
ضحكت محاسنه اليك كأنما
جملت لها زهر النجوم ثغورا
وإذا الولائد فتحت أبوابه
جملت ترحب بالعفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم
فغرت بها أفواهها تكبيرا

فكأنما لبدت تمصر عندها
 من لم يكن بدخوله مأمورا
 ومصفح الأبواب تبرأ نظروا
 بالنقش فوق شكوله تنظيرا
 وإذا نظرت إلى غرائب سقفه
 أبصرت روضاً في السماء نضيرا
 وضعت به صناعاتها أقلامها
 فأرتك كل طريدة تصويرا
 وكأنما للشمس فيه ليقة

مشقوا بها التزييق والتشجير^(١)

فلما أقبلنا على المجلس غلبني البهر من جلالة الأمير ،
 فسلم الفقيه الوثائق ، ثم سلمت بعده بالامارة فردّ على
 السلام باشا في وجهي واذن لنا بالجلوس ، وقد كان قاضي
 القضاة جالسا عن يسار الأمير ، ثم أخذ الأمير في أحاديث

(١) الابيات لابن حمديس وقد تمثلنا بها على الرغم من
 تأخر زمانه عن زمن الرحلة وبحسب القارىء تنبيهه الى ذلك

شتى يقصد بها لعله أن يؤنسنى وينفى الوحشة عن ساحتى
وبعد أن آنس منى الانس به قال : أىّ منتوى ينتوى
أخونا المصرى ابن شاء الله ، فقلت انى أنتوى يا مولاي
القطر الاندلسي ، فقال : ومتى زایل مصر ، فقلت منذ
نيف وعشرين يوما ، فقال وكيف فارقتها ؟ فقلت على أحسن
حال يا مولاي الأمير . فقال : وكيف حال الأمير انوجور
وحال كافور معه ^(١) فقد اتصل بنا أن كافورا قد استبد به
وغلبه على أمره . فقلت : اذا كان كافور يا مولاي قد
استبد بالامير انوجور فان المصريين قد استبدوا بكافور ،
فقد أصبح كافور للمصريين لا لنفسه ولا للأمير ،

(١) كان يلى مصر في ذلك الوقت من قبل العباسيين ابو
القاسم انوجور الاخشيدي ولصفر سنة كان ابوالمسك كافور «وهو
الذي اشتراه محمد بن طغج الاخشيدي من رجل مصرى يسمى محمود
بن وهب بن عباس بثمانية عشر دينارا وجعله أتابك ولديه »
فكان كافور قيما على أنوجور مستبدا طبعها بالامر دونه وكانت
الدولة الفاطمية المستولية على طرابلس وتونس والجزائر ومراكش
في ذلك العهد طامعة في أخذ مصر وفعلا فتحتها بعد ذلك ببضع
سنوات بعد موت كافور

فسيرته فينا عادلة رشيدة ، وحاله معنا جميلة سديدة (١)
 لأنه يعلم أن الملوك انما هم خدام الرعية فكيف يظلمونها
 ويستجيزون كيدها ، ولم يستعبدون الناس وقد ولدتهم
 امهاتهم أحراراً ؟ على أن كافورا ليس هو وحده الذي ينهض
 باعباء الملك ، وانما يشد أزره ، ويشاركه أمره ، وزيرنا
 الأعظم أبو الفضل جعفر بن الفرات وغيره من رجال
 الدواة . فقال الأمير : ولكن أليس اليق بكم واسمى وانبل
 ان يلى أمركم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه أمير المؤمنين
 المعز لدين الله ، وأنت تعلم أيها الأخ ان العباسيين قد ضعف
 أمرهم ، وتضعضعت حالهم ، والثالث عليهم مذكرهم ، وانتزى
 الاعاجم والأتراك على البلاد فاقتطعوا الممالك منهم وتفردوا
 بالامر دونهم (٢) اما عبد الرحمن الناصر صاحب

(١) كان كافور كما يقول ابن خلكان من اعظم الملوك حودا
 كثير الخشية لله والخوف منه وكان يجلس للمعظالم بنفسه في
 كل سبت وكان يرغب في اهل الخير ويعطيهم وقد امتدحه
 المتنبي بقصائد عدة

(٢) كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المطيع لله وفي

الأندلس فقد اكتفى بما في يده من الممالك المترامية الأطراف ، فلم يبق الا أن تستظلوا بظل خلفائنا الفاطميين حتى يحموكم وبردوا عنكم طمع الطامعين . وهنا طار طائر الغضب إلى رأسى فلم البث أن اندفعت قائلاً : ان مولاي الأمير حفظه الله يعلم أنه اذا عدّ من أظلم الظلم وانكر النكر أن ينقض جرح من الجوارح على وكر طائر آمن في سربه فيزعجه في سكنه ، وينقص عليه عيشته ، ويستلبه سراحه وحرية ، ويضطره اما الى الظعن الى جو غير جوه ، أو الاقامة بجواره بين مخلبه وظفره ، فان من الظلم الذى لا ظلم وراءه أن تعدوامة على اخرى وحجتها في

ايامه كانت فارس في يد معز الدولة بن بويه والموصل وديار بكر ومصر وريسة في يد سيف الدولة بن حمدان ومصر والشام في يد الاخشيدي والبصرة في يد ابن رائق وخوزستان في يد البريدي وكرمان في يد ابي على بن الياس واصفهان والجبل يتنازعها آل نويه ومرداويج وما وراء النهر في يد بني سامان وطبرستان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في يد القرامطة وذلك هذا الاندلس والمغرب

ذلك أن تحميها من طمع الطامعين . اليس من السفسطة ،
وأقعد ما يقال في باب المغالطة ، أن يعدو قوم على قوم بحجة
أن هذا العدو انما هو وقاء لهم من عدوان آخرين ؟ ولم
لا تبدأ هذه الأمة بنفسها فتريح غيرها من عداؤها ، ان
مولاي الأمير اعلم أن حب الوطن من الايمان ويقول
رسول الله صلوات الله عليه : حب الوطن من طيب المولد :
ويقول : لولا حب الوطن لخربت بلاد السوء : علي أن فطرة
الانسان معجونة بحب وطنه ، ولذلك يقول بقراط : يداوى
كل عليل بعقاقير أرضه ، ويقول جالينوس : يتروح العليل
بنسيم بلده كما تتروح الارض الجدبة ببلل القطر ، ويروى
أنه لما اسر سابور ببلد الروم قالت له بنت الملك - وكان قد
مرض وعشقته - ما تشتهي قال شربة من ماء دجلة وشمة
من تراب اصطخر فحملا اليه فبرأ وابل من مرضه . والكريم
يامولاي يحن الى جنابه ، كما يحن الاسد الى غابه ، وكفى دلالة
على محبة الوطن قول الله جل شأنه : ولو أنا كتبنا عليهم أن
اقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الآية ومن

ثم كان الأم بيت قالته العرب قول القائل :

تلقى بكل بلاد إن حملت بها

ناساً بناس وإخوانا باخوان

فلا جرم أن يتغلغل حب مصر والمصريين في السواد

من حبة القلب منى ، حتى لكانى المعنى بقول من يقول :

كأن فؤادى من تذكره الحمى

وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وكيف لا أحب بلدا ولدت فيه ، وأرضه هى أول

أرض مس جلدى ترابها ، وقد طعمت غذاءها وشربت ماءها

النمير ، ماء نيلها المبارك الذى يعذر الاقدمون عن زعمهم

ان الجنة منبعه انسرب منها الى هذه الخضراء

بلد صحبت به الشبيبة والصبي

وابست فيه العيش وهو جديد

فاذا تمثّل فى الضمير رأيت

وعليه أفنية الشباب تيمد

ألا يا حبذا وطني وأهلي
وصحبي حين يُدّكر الصحاب
وما غسل ببارد ماء مزن
على ظمأ لشاربه يشاب
بأشهى من لفائكم الينا
فكيف لنا به ومتى الاياب

ومولاي الامير يعلم علماً ليس بالظن أن الحكام الغرباء
عن البلاد مهما كانت منزلتهم من العدل لتأبى عليهم سنة
الله في خلقه الا أن يضيّموا الرعية التي لا تمت اليهم برحم
أو أصرّة موطن ، أما رهط المرء فرحم الله من قال
لعمري لرهط المرء خيرٌ بقيّةً

عليه وان عالوا به كل مركب
اذا كنت في قومٍ عدّاً^(١) لست منهم
فكل ما علفت من خبيث وطيب
لذلك كله اقول وأنا آمن الامير

ولى وطن آليت ان لا ابيعه

وأن لا ارى غيرى له الدهر مالكا^(١)

وهنا اطرق الامير ثم انبعث قاضى القضاة قائلاً :
أظن اخانا المصرى لا يغيب عنه أن الارض قد ملئت اليوم
جوراً وظلماً وعدواناً ، وذاع الفساد ، فى البلاد ، وعم الشر
وطم ، فلا بد من امام عادل يملأ الدنيا قسطاً وعدلاً كما
ملئت جوراً وظلماً ، ولا يكون هذا الامام الا من ولد

(١) البيت من أبيات لابن الرومي يقول فيها بعد هذا

البيت

عهدت به شرخ الشباب ونعمة

كنعمة قوم اصبحوا فى ظلالكا

فقد الفته النفس حفي كأنه

لها جسد ان بان غودر هالكا

وحبب اوطان الرجال اليهم

ما رب قضاها الشباب هنالكا

اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم

عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وها هو ذا قد صدق رسول الله وعده وجاء اليها امام المسلمين العادل الرحيم البار برعيته ، الداعي الى الحق والقائم بنصرته ، مولانا وابن مولانا المعز لدين الله بن مولانا المنصور بن مولانا القائم بن مولانا عبيد الله المهدي ادام الله تأييده ، هذا الى أنه لا يوجد اليوم بين ملوك المسلمين من هو اعز من مولانا نفراً ، واكثر مالا ووفراً ، واقوى سلاحاً وشوكة ، وأبعد في سياسة الامم تجربة وحنكة ، فكان لذلك من الواجب الحتم على كل مسلم أن يعمل على نشر دعوته ، ويستظل برعايته . فما كاد قاضي القضاة يتم كلامه حتى ابتدرت فقلت ان المصريين لا ينكرون على امير المؤمنين المعز لدين الله شيئاً مما قلت بيد أن مولانا حفظه الله بعرف مما عرف من طبائع البشر ان الامة التي تغلب على امرها ، ويخفق عليها لواء غيرها ، وتصبح بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليها ، يقصر املها ، ويبلى رجاؤها ، وتضوى ارواحها واحتمال الاذى ورؤية جانيه ٥ غذاء تضوى به الاجسام

وذلك لما خضد الغلب عليها من شوكتها، وكسر من
 حميتها، فيفضي ذلك على كراً الأدهار، وتعاقب الليل والنهار،
 الى أن ترأم الذل^(١) والاستخذاء، وتشتمل باردية الكسل
 والوناء، فيكون من نتاج ذلك ضعف النشاط في القوى
 الحيوية وهلم حتى يتناقص عمرانهم وتلاشى مكاسبهم
 ويعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، فيصبحوا مغلبين لكل
 متغلب، طعمة لكل آكل، نهباً مقسماً، لكل ناهب، ونمت
 شيء آخر وهو أن الانسان يا مولاي رئيس بطبعه بمقتضى
 الاستغلاف الذى خلق له، والرئيس اذا غلب على رأسته،
 وكبح عن غاية عزه تكامل حتى عن شبع بطنه ودرى كبده
 وهذا سر ركب في غرائز البشر كما انه وجد مثله في الحيوانات
 المفترسة، فانها لا تسافد كما يقولون اذا كانت فى مَلَكة
 الأدميين

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحما

وهنا كأن الأمير أراد أن يُطوى بساط هذا الموضوع
فانتقل فجأة الى معنى آخر فقال : هل يحفظ اخونا المصري
شيئا مما مدح به المتنبي الشاعر كافورا ؟ وهل لا يزال هذا
الشاعر مقبلا في مصر ؟ فقلت : نعم يا مولاي الأمير - لقد
فارقت مصر ولما نزل المتنبي في خدمة مولانا الاستاذ أبي
المسك كافور ، ولقد امتدحه بأحسن المدح ، وحق له أن
يمتدحه ، اذ اللها يا مولاي تفتح اللها^(١) كما يقولون ، فما
يعلق بالذاكرة مما انشدنيه ، قوله فيه ، بعد أن وصف
الخيول التي سرت به اليه

قواصد كافور توارك غيره

ومن قصد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا انسان عين زمانه

وخلت بياضاً خلفها وماقيا

(١) اللها الاولى بضم اللام جمع لهوة وهي العطية واللها
الثانية بفتح اللام جمع لهاة وهي هناة حمراء في الحنك معلقة على
عكدة اللسان

وقوله من قصيدة
وأخلاق كافورا إذا شئت مدحه
وان لم أشأتلى عليّ فأكتب
إذا ترك الإنسان أهلا وراءه
ويعم كافورا فما يتغرب
وفي هذه القصيدة يقول
وما الخيل إلا كالصديق قليلة
وإن كثرت في عين من لا يجرب
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها
واعضاؤها فالحسن عنك مغيب
لما لله ذى الدنيا منا خالرا كب
فكل بعيد الهم فيها معذب
وله فيه قصيدة مطلها
أود من الأيام ما لا توده
واشكو اليها بيننا وهي جنده
يقول فيها من حكمته البالغة

وأُتعب خلق الله من زادهم
وقصر عما تشتهي النفس وجده
فلا ينحلل في المجد مالك كله
فينحل مجد كان بالمال عقده
ودبره تدبير الذى المجد كفه
إذا حارب الأعداء والمال زنده
فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله
ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده
إلى أن يقول

وما رغبتى فى عسجد أستفيده
ولكنها فى مفخر أستجده
وقوله فيه من أخرى مطلها
من الجأذر فى زى الأعاريب
حمر الحلى والمطايا والجلايب

كأن كل سؤال في مسامعه
قميص يوسف في أجفان يعقوب
إذا غزته أعاديه بمسألة
فقد غزته بجيش غير مغلوب
ويعجبني من نسيب هذه القصيدة قوله
كم زورة لك في الأعراب خافية
أدهى - وقد رقدوا - من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى
وأنتنى وبياض الصبح يغرى بى
إلى أن يقول
ما أوجه الخضر المستحسنات به
كأوجه البدويات الرايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفى البدواة حسن غير مجلوب
فقال الأمير : بيد أنه بلغنى اليوم فقط أن المتنبي زایل
مصر بأخرة وهجا كافورا هجاء قاسيا مرا بأبيات يقول فيها

لقد كنت أحسب قبل الخلعى م
أن الرؤوس مقر النهى
فلما نظرت إلى عقله
رأيتُ النهى كلها فى الخلعى
وماذا بمهر من المضحكات
ولكن ضحك كالبكي
بها نبطي من اهل السواد
يدرس أنساب أهل العلا
وأسود مشفره نصفه
يقال له أنت بدر الدجى
وشعر مدحت به السكر كدوم
بين القريض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحاله
ولكنه كان هجو الورى
إلى أن يقول

ومن جهات نفسه قدره

رأى غيره منه ما لا يرى

فقلت إذا كان قد هجاه فقد قال الله جل شأنه والشعراء
يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون
ملا يفعلون ، وصدق رسول الله صلوات الله عليه ، شر
الناس من أكرمه الناس اتقاء لسانه ، ورحم الله من يقول
لا تؤاخ شاعراً فإنه يمدحك بثمن ويهجوكم مجاناً ، على أن
المتنبى رجل ذو طماعية وطماح ، وكان مولاي الأستاذ أبو المسك
وعده بولاية بعض أعماله فلعله رأى منه بعد ذلك ما لم يستطع
معه الوفاء بما وعد^(١) فقال فيه المتنبى ما قال — قال الأمير
ولكن للمتنبى في سيف الدولة بن حمدان وفي غيره ما هو
أبرع مما مدح به كافورا ، ويعجبني من قصيدة له في ابن
حمدان قوله

(١) رووا أن كافورا كان قد وعد المتنبى بولاية بعض
أعماله فلما رأى تعاليه في شعره ومموه بنفسه خافه وعوتب فيه
فقال يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد أما يدعى المملوك مع كافور

إذا ما سرت في آثار قوم
تخاذلت الجماجم والرقاب (١)

إلى أن يقول

وكيف يتم بأسك في أناس
تصديهم فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى عليهم
فان الرفق بالجاني عتاب
وأنت حياتهم غضبت عليهم
وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أياديك البوادي
ولكن ربما خفي الصواب

(١) أوضح هذا المعنى أبو بكر الخوارزمي فذكره في

ثلاثة أبيات قال

وكننت إذا نهدت لغزو قوم وأوجبت السياسة أن يبيدوا
تبرأت الحياة اليك منهم وجاء اليك يعتذر الحديد
وطلقت الجماجم كل قحف وانكر صحبة العنق الوريد

وكم ذنب مولده دلال
وكم بعد مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم
وحل بغير جارمه العذاب
وقوله فيه من قصيدة
يقود اليه طاعة الناس فضله
ولولمَ يَقْدُها نائل وعقاب
أيا أسدا في جسمه روح ضيغم
وكم أسد أرواحهن كلاب
وفي هذه القصيدة يقول
وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه
ولو ان ما في الوجه منه حراب
لها ظفر إن كل ظفراً عده
وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغير مني الدهر ما شاء غيرها
وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

الى أن يقول

وللسر منى موضع لا يناله

نديم ولا يفضى اليه شراب

ولله هو إذ يقول فى كلمة له

دع النفس تأخذ وسمعها قبل بينها

فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقا وقيمة

فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى

لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركك فى الدنيا دويا كأنما

تداول سمع المرء أنمله العشر

إذا الفضل لم يرفعك عن شكرنا قص

على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله

مخافة فقر فالذى فعل الفقر

ثم قال الأمير : وهل لا يرى أخونا المصرى لأبي
القاسم ابن هانيء الاندلسى شاعر أمير المؤمنين المعز لدين
الله ما يستأهل به أن يُبلِّغَ مع المتنبى في قَرَن^(١) ؟ فقلت
انى أخشى يا مولاي أن أصرح برأى . فقال قل وأنت
آمن . فقلت انى لا أشبهه يا مولاي الا برحى تطحن
قرونا^(٢) وانى كلما نُشدت شعره فكأنى أسمع جمعجة
ولا أرى طحنا ، فاربد وجه الأمير غضباً ثم تحالم وقال :
وهل يقال مثل هذا فيمن يقول

يا بذت ذى السيف الطويل نجاده
اكذا يجوز الحكم فى ناديك
عيناك أم مغناك موعدنا وفى
وادى الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروافلو
عثررا بطيف طارق ظنوك

(١) يجاريه ويتساوى به (٢) هذه الكلمة لابى العلاء

قالها لما سمع شعرا بن هاني

ودعوك نشوى ماسقوك مدامة
لما تمايل عطفك اتموك
حسبوا التسكحل فى جفونك حلية
تا الله ما با كفهم كحلول
وجلوك لى اذ نحن غصنا بانه
حتى اذا احتفل الهوى حجبوك
ويقول من أبيات فى وصف الخليل

تكاد تحس اختلاج الظن
ومن رفقها أنها لا تحس
وتحسب اطراف آذانها
يراعا برين لها بالمدى
ن بين الضلوع وبين الحشى
ومن رفقها أنها لا تحس
يراعا برين لها بالمدى
جربن الى السبق فى حلبة
اذا ما جرى البرق فيها كبا
ديار الاعزة اكنها
مكرمة عن مشيد البنا

وهل لمولانا المعز الذى يقول مثل هذا الشعر

اطلع الحسن من جبينك شمسا

فوق ورد فى وجنتيك اطلا

وكان الجمال خاف على الورد

م جفافاً فدد بالشعر ظلاً

أن يقرب ابن هانيء اليه ويؤثره على غيره ويعتز به
ويفاخر لولا أن رآه من الشعر بحيث لا يكاد يتخلف عن
المتنبى؟ بلى وإذا كان في المشرق المتنبى ففي المغرب
ابن هانيء. وإذا كان فيه عبد الله بن المعتز فعندنا ابن مولانا
المعز - الامير ابو على تميم^(١) الذي يقول

(١) كان تميم بن المعز شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً ولم يل
المملكة لأن ولاية العهد كانت لأخيه العزيز فوليها بعد أبيه
المعز وقد توفي تميم بمصر سنة ٣٧٤ هـ وله شعر جيد يشبه شعر
ابن المعتز، فقد كان يحتذى مثاله ويقف في التشبيهات بجانبه ويفرغ
فيها على قلبه، ولا بأس بأن نورد هنا قطعاً مختارة من شعره اشادة
بذكره وتنويهاً بقدره لانه يظهر أن كثيراً من ادباء هذا الجيل
لا يعرفونه حق معرفته فمن قوله:

رب صفراء علمتني بصفراء ووجنح الظلام مرخي الازار
بين ماء وروضة وكروم ورواب منيفة وصحار
تتني به الغصون عليها وتجيّب القيان فيها القماري

وكان الدجى غدائر شعر وكان النجوم فيها مداري
وانجلى الغيم عن هلال تبدى في يد الافق مثل نصف سوار
ويقول

عتبت فانثى عليها العتاب ودعا دمع مقلتيها انسكاب
وسعت نحو خدها بيديها فالتقي الياسمين والعناب
رب مبدى تعنت جعل العنة ب رياء وهمه الاعتبار
فاسقينها مدامة تصبغ الكا س كما يصبغ الحدود والشباب
ما تري الليل كيف رق دجاء وبدا طيلسانه ينجاب
وكان الصباح في الافق باز والدجى بين مخليبه غراب
وكان السماء لجة بحر وكان النجوم فيها حباب
وكان الجوزاء سيف صقيل وكان الدجى عليها قراب
ويقول

وزنجية الآباء كرخية الجلب
عبيرية الاتقاس كرمية النسب
كميت بزنادتها فتفجرت
بأحر قان مثل قطر من الذهب
فلما شربناها صبونا كأننا
شربنا السرور المحض واللهو والطرب

ولم نأت شيئاً يسخط المجد فعله
سوى أننا بعنا الوقار من اللعب
كأن كؤوس الشرب وهى دوائر
قطائع ماء جامد تحمل اللهب
يمد بها كفا حضيها يديرها
وليس بشيء غيرها هو مختضب
فبتنا نستقي الشمس والليل راكد
ونقرب من بدر السماء وما قرب
وقد حجب النجم الهلال كأنه
ستارة شرب خلفها وجه من أحب
كأن الثريا تحت حلـكة لونها
مداهن بلور على الارض تضطرب

ويقول

كأن السحاب الغر اصبحن أ كؤوسا
لنا وكأن الراح فيها سنا البرق
الى أن رأيت النجم وهو مغرب
وأقبل رايات الصباح من الشرق
كأن سواد الليل والصبح طالع
بقايا مجال الكحل في الأعين الورق

ويقول مفتخرآ

ألقى السكى فلا أخاف لقاءه
وأكر في صدر الحميس معانقآ
وعلمت أخلاق الزمان فلم أضق
وكما يمل الدهر من اعطائه
وكما يكر لمعشر بسعادة
فاذا رماك بشدة فاصبر لها
وسل الليالى عن تقاذ عزمى
تخبرك أنى لم ألقها
أصبحت لأشتاق الا للندي
واذا السيوف قطعن كل ضريبة
ويقول وهو مما يتغنى به

قالت وقد نالها للبين أوجمه

والبين صعب على الاحباب موقعه

اجعل يدك علي قلبي فقد ضعفت

قواه عن حمل ما فيه وأضلعه

واعظف علي المطايا ساعة فمسى

من شت ثمل الهوى بالبين نجمة

وكما يمل الدهر من اعطائه فكذا ملأته من الحرمان

ويقول

وما أم خشف ظل يوما وليلة

يبلقمة بيضاء ظمان صاديا

تهيم فلا تدرى الى أين تنتهي

موله حيري تجوب الفياض

أضر بها حر الهجير فلم تجد

أغلاها من بارد المساء شافيا

فلما دنت من خشفها انعطفت له

فألفته ملهوف الجوانح طاويا

بأوجع منى يوم شدت حملهم

ونادى منادى الحى ان لاتلاقيا

ويقول

كأنني يوم ولت حسرة وأسى

غريق بحري الشاطئ ويعنمه

وشعره كله مختار ظريف

أما والذي لا يملك الأمر غيره
ومن هو بالسر المكتوم أعلم
أئن كان كتمان المصائب مؤلماً
لأعلانها عندي أشد وآلم
وبى كل ما يبكى العيون أمله
وان كنت منه دائماً أتبسم
وبعد ذلك رأيت من الحزامة أن لا أطيل سبب
المحاجة ، فخرجت بالصمت عن لا ونعم ، ثم أمر لى الأمير
بعطاء سنى ، ثم اذن لى فى الانصراف من حضرته

مَزَائِر مَبْهُورَةٍ وَمَنْوُورَةٍ وَمَبْاسَةٍ

وقبل أن اختتم هذه الرسالة آتى لك على شىء مما
اعترضنا فى طريقنا بعد أن انفصلنا من بلرم قاصدين إلى
المرية ، فمن ذلك أنا ونحن ازاء جزيرة كبيرة تسمى سردانية

ابصرنا أسطولا كبيرا قادما من ناحيتها ، وقد علمنا ان هذا
الاسطول هو اسطول المعز لدين الله ، غزا هذه الجزيرة ،
وبلاد جنـوه من بر الارض الكبيرة ، وغنم وسبي
شيئا كثيرا يخطئه العد والاحصاء ، وما خام ^(١) في سائر
غزواته عن اللقاء ، على ما في ذلك من الغرر ، اذ ان وراء
هذه البلاد من امم افرنجة عديد الذر ، غير أن المعز يفعل
ذلك الفينة بعد الفينة ، لأنه يعلم أن الجهاد باب من أبواب
الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل وسما الخسف
وذيت بالصغار ^(٢) ، وان أمة من الأمم تريد أن تكون
عزيزة مهيبة لا بد من أن تغزو غيرها قبل أن يغزوها
الاغيار ، ورضى الله عن علي بن أبي طالب إذ يقول في إحدى
خطبه : ما أغزى قوم قط في عُقر دارهم الا ذلوا :

وهذه سردانية جزيرة كبيرة في غرب هذا البحر

(١) خام أى جبن ونكص (٢) أى ذلل يقال للبعير اذا

ذلته الرياضة بعير مديث أى مدلل

الرومى غزاها المسلمون حوال سنة ٩٢ هجرية الموافقة سنة ٧١٠ ميلادية فى عسكر موسى بن نصير وملكوها حينئذ من الدهر ثم تركوا حبلها على غاربها ثم هم الآن يغزونها من وقت لآخر ويغنمون ويسبون لما علمت .

وقد مررنا فيما مررنا به من جزر هذا البحر بجزائر ثلاث متجاورات تسمى ميورقة ومنورقة ويابسة^(١) ، وهي جزائر عامرة مأهولة بالمسلمين يرجع أمرها إلى صاحب

(١) جاء فى نفح الطيب : وجزيرة ميورقة مسافة يوم . بها مدينة حسنة وتدخلها ساقية جارية على الدوام وفيها يقول ابن اللبانة

بلد اعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاوس
فكأنما الانهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤس

وقال يخاطب ملسكها فى ذلك الوقت

وغمرت بالاحسان ارض ميورقة وبنيت الم يبنه الاسكندر
والى هذه الجزائر ينتسب جماعة من العلماء والادباء ارجأنا
ذكرهم الى الرسالة الرابعة لانها موضع ذلك

الاندلس . وعليها وال من قبله . ومن هنا تعلم أن المسلمين
قد ملكوا ناصية هذا البحر الرومي بما فيه من الجزائر
الكبيرة والصغيرة علاوة على جزائر بحر الظلمات « المحيط
الأطلسي » كما أسلفنا لك . فسبحان المعز لمن يشاء ، وإن
الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

* * *

« تمت هذه الرسالة - وقد كتبت على متن البحر
ويديننا وبين المرية مسيرة يوم أو بعض يوم ، وذلك في شهر
جوانيه الرومي سنة ست وخمسين وتسعمائة الموافقة سنة
خمس وأربعين وثلثمائة هجرية »



الرسالة الثانية

من المريّة الى قرطبة

أظنك يا أخى لا تزال على ذكر من أن الرسالة الاولى من هذه الرسائل كتبت ونحن على متن البحر - قبل أن نصل الى مرافئ الاندلس ، اما هذه الرسالة الثانية فقد وضعناها بعد أن حططنا رحالنا في قرطبة حضرة هذه البلاد « عاصمتها » وقد خصصت هذه الرسالة بوصف كل ما مر بنا من حين اقترابنا من ميناء المريّة الى أن وصلنا الى قرطبة .

اما المريّة فهي إحدى مدن الاندلس الكبيرة الواقعة في شرقها ، وهي على ساحل البحر الرومى « البحر الأبيض المتوسط » وهي مرسى للسفن القادمة الى هذه البلاد

الاندلس - وفي مينائها يربض الجانب الأ كبر من أسطول
الاندلس الأعظم والجانب الآخر يرسى في بجاية - وهي
واقعة بين جبلين ، فعلى الجبل الواحد قصبتها المشهورة
بالحصانة ، وعلى الآخر ربضها ، والسور محيط بها وبالربض ،
وفي غربها ربض لها آخر يسمى ربض الحوض ، ذو فنادق
وحمامات وخنادق وصناعات ، وقد استدار بها من كل جهة
حصون مرتفعة واحجار أولية وكأنها غربلت أرضها من
التراب ، ولها مدن وضياع عامرة متصلة الانهار ، وطول واديها
أربعون ميلا في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة
وأثمار مطردة وطيور مغردة ، وتشتمل كورتها على معدن
الحديد والرخام - وبها النسيج طرز الحرير ثمانمائة نول ، وللجلل
النفيسة والديباج الفاخر الف نول ، وللثياب الجرجانية
والاصفهانية كذلك - ويصنع بها من صنوف آلات
الحديد والنحاس والزجاج مالا يوصف ، وقد علمت أنه
لا يوجد في بلاد الاندلس أكثر مالا من أهل المرية ،
ولا أعظم متاجر وذخائر - وبها من الحمامات والفنادق نحو

الألف ، وفاكهة المرية يقصر عنها الوصف حسناً ، وفيها كثير
من العلماء والادباء والفلاسفة (١)

وجملة القول أن المرية هذه كما رأيت تزخر بالحياة
زخراً ، وتنطق بنشاط المسلمين وجدهم ، وباقي غايات
عزهم لذلك ومجدهم

فلو ان السماء دنت لمجد ومكرمة دنت لهم السماء

ولما صافح مركبنا امواه المرية - وكان يسير بمخدائنا
مركب آخر علمنا أن فيه ابا علي القالى اللغوي وافد العراق
وسائر من قاموا معنا من الاسكندرية في مركب امير
المؤمنين عبد الرحمن الناصر - آنسنا من جانب الميناء -
ميناء المرية - اسطولا كبيراً قادماً علمنا حتى اذا صار منا أذني
ذي ظلم (٢) أخذ يحميننا من فيه بالرايات والاعلام - وكان
فيه الامير عبد الرحمن بن رماحس قائد أساطيل الاندلس
الاكبر - اذ امره مولاي الحكم بن امير المؤمنين

(١) أرجأنا ذكر من انجبت المرية وبجاية الى الرسالة الرابعة (٢) قريباً جداً

عبد الرحمن الناصر وولى عهده أن يتلقانا في وفد من وجوه
الانداسيين ويجيء معنا الى قرطبة ، تكرمة من الامير لنا
ولأبي على القالى حفظه الله - فكان من رجال ذلك الوفد
شاعر الانداس يوسف بن هارون الرمادي وابو بكر
بن القوطية سيد علماء اللغة في الاندلس وابن رفاعه الالبيري
احد ادباء البيرة وفى نشأ يتوقد ذكاء ويقطر أدبا والمعية
يسمى أبا بكر الزبيدي وكثير غير اولئك من علماء الاندلس
واعيانها وقوادها - وهذه عمرك الله اية محسنة على شدة
عناية الامير بالعلم واهله - ولا بدع فقد وقفنا من ذلك على
الشيء الكثير الذي سماه هذا الامير في اعيننا . فمن ذلك فيما
تحققناه انه يبعث الحين بعد الحين فى شراء الكتب الى
الافطار ، رجالا من التجار ، ويرسل اليهم الاموال لابتاعها
حتى جلب منها الى الاندلس ما لم يعهدوه فى ربوعها ، وقد
بعث فى كتاب الاغانى لابي الفرج الاصفهاني ، وارسل اليه
فيه الف دينار من الذهب العين ، فبعث اليه بنسخة من
قبل أن يخرج به الى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي ابي بكر

الأبهرى في شرحه المختصر بن الحكم ، فهكذا هكذا تكون
الملوك والامراء ، وبمثل هذا يذعنش العلم والاعلاء.

ولما ارسى مركبنا والمركب الذى يقل أبا علي القالى على
ميناء المرية قدم لنا ابن رماحس جميع رجال الوفد الاندلسى
وعرفنا بهم ثم امتطينا المطايا الفارهة وذهبنا الى دار
ابن رماحس الكائنة في قصبة هذه المدينة

ولما استقر بنا النوى وألقينا عصا التسيار ، وانتظم
شملنا في تلك الدار ، أخذ الرمادى الشاعر ينشدنا ابياتاله
في اسماعيل بن عيذون القالى يمتدحه بها،^(١) علق بالذاكرة
منها هذه الايات

من حاكم بينى وبين عدولى

الشجو شجوى والعويل عويل

في أى جارحة اصون معذبي^(١)

سَلَمَتْ من التعذيب والتنكيل

(١) مدح الرمادى ابا علي القالى حقيقة بهذه الايات (٢) من
هنوات الشعراء المستظرفة ما روي ان المتنبي لما مع هذا البيت

ان قلت فى بصرى فثم مدامعى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى
اكن جعلت له المسامع موضعاً
وحجبتها عن عدل كل عدول
الى أن يقول متخلصاً بعد أن وصف الروض
روض تعاوده السحاب كأنه
متعاود من عهد اسماعيل
فسه الى الاعراب تعلم أنه
اولى من الاعراب بالقفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت
فيهم وحاز لغات كل قبيل

قال : يصونه فى استه : وان الرمادى لما بلغه قول المتنبي
كنهى بجسمى نحو لا أننى رجل
لولا مخاطبتي اياك لم ترنى
قال - وأكرم الله مع القارىء - اظنه ضربة

فالشرق خال بعده وكأنما
 نزل الخراب بربعه المأهول
 فكانه شمس بدت في غربنا
 وتغيبت عن شرقهم بأفول
 يا سيدي هذا ثنائى لم اقل
 زوراً ولا عرّضت بالتنويل
 من كان يأمل نائلاً فانا امرؤ

لم ارج غير القرب في تأميلي
 وبعد ذلك أخذنا في ضروب من الحديث افضت في
 نهايتها الى حادث كدر علينا صفاءنا ، وذلك أن أبا عليّ أخذ
 ينثر على الحنفل درر أدبه فكان من بين ما جاء في حديثه
 أدب عبد الملك بن مروان وانه قال يوماً لجلسائه : أى المناديل
 أشرف؟ فقال قائل : مناديل مصر كأنها غرقى البيض (١)
 وقال آخر مناديل اليمن كأنها نور الربيع ، فقال عبد الملك :

(١) غرقى البيض القشرة الرقيقة التي تعلو البيضة دون قشرها
 الاعلى وقشرها الاعلى يقال له القيص

ما صنعتما - شيئاً افضل المناديل مناديل أخى بني سعد عبدة
بن الطيب اذ يقول

لما نزلنا نصبنا ظل أخبية

وفار للقوم باللحم المراجيل ^(١)

ورد واشقر ^(٢) ما ينثيه طابخه ^(٣)

ماغير الغلى منه فهو مأكول

ثمّت قمنا الى جرد مسومة ^(٤)

اعرافهن لا يديننا مناديل

وانشد القالى الكلمة فى البيت - اعرافها لا يديننا

مناديل - فما كان من الاديب ابن رفاعه الألبيري - وقد

لاحظنا فى خلقه حرجا وزعارة ^(٥) الا أن استعماذ ابا على

(١) جمع مرجل وكان حقها المراجل ولكن لما كانت

الكسرة لازمة اشبعها للضرورة (٢) أي مانغير من اللحم قبل

نضجه (٣) أي ما يؤخره لانه لو آناه لانضجه لان معنى اناه

بلغ به اناه أي ادراكه والعرب لا تنضج اللحم لتعجيل القرى

ومن ثم قال ماغير الغلى منه فهو مأكول (٤) أي معلة (٥) شراسة

وسوء خلق

البيت مثبتاً مرتين ، في كليهما ينشد اعرافها ، فقام ابن رفاعه وقال - مع هذا يوفد على امير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة ، ثم بالانصراف ، فندبه الامير ابن رماحس أن لا يفمل فلم يجد فيه حيلة ، فاضطر ابن رماحس الى أن يكتب الى الحكم يعرفه ويصف له ما جرى من ابن رفاعه ويشكوه ، فجاء جواب الحكم الى ابن رماحس بما نصه كما اطلعني عليه ابن رماحس

« الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد العراق الينا ، وابن رفاعه اولى بالرضى عنه من السخط فدعه لشانه واقدام الرجل غير منتهى من تكريمه ، فسوف يعليه الاختبار ان شاء الله أو يحطه » (١)

(١) هذه الحكاية واقعة تاريخية حدثت لابي على القالى

الاسطول الاندلسي

« وروح العظمة التي ترفرف عليه »

أسلفنا لك في الرسالة الاولى من هذه الرسائل شيئاً من القول قد يكون مغنياً في معنى الاسطول واثره الصالح في الدولة الآتية، وان الدولة الفاطمية في افريقية، والدولة الاموية في الاندلس، لهذا السبب بعينه ولان بلادها واقعة على سيف البحر الرومي « البحر الابيض المتوسط » وبحر الظلمات « المحيط الاطلانطي » قد بذتا سائر الدول في العناية بالاساطيل حتى قبضتا بها على أعنة البحار، واستوتا^(١) على ما فيه من جزائر واقطار، وآصتا بذلك وآصت رعاياها سادة البر والبحر، بل ذل الزمان لهم ولانت اعطاف الدهر، وهذا هو الذي أدهج بين هاتين الدولتين بالفساد. وأرسل بينهما عقارب الاحقاد، وأثار بينهما نقع الحرب والجهاد، حتي لا تكاد الحروب

بين الدولتين ينطفيء لهيبها ، فتراهما للتافه من الاسباب
يجردان الجيوش بعضهما على بعض ، وتتلاقى اساطيلهما
مصرحة بالشر ، ولعلك لم تنس بعدُ حادثة هــذا المركب
الاندلسي الذي قُنا فيه من الاسكندرية ، وانه تحرش وهو
ذاهب الى المشرق بمركب للمعز لدين الله الفاطمي وأخذ
ما فيه من بريد وبضائع ، فما كان من المعز الا أن أرسل
اسطولا كبيراً الى مريض الاسطول الاندلسي في المرية
كما أُخبرنا بذلك ونحن في هذا البلد ـ فعاث فيه عيثاً ، وألحق
به وبالمرية ما ارضاه وتقع غلته وأطفأ لهيبه ، فلم يسع امير
المؤمنين عبد الرحمن الناصر الا الانتقام من المعز ، فأمر
بتجريد الاسطول وحشد المقاتلة والذهاب الى أفريقية
فذهب اليها تحت أمرة حاجبه الوزير احمد بن عبد الملك
ابن شهيد اسطول كبير يُقل عدداً عظيماً من رجالات
الحرب ، فجاج أولاً على مدينة وهران وجمع من فرسان
الاندلس المحتلين بلاد المغرب نحواً من خمسة وعشرين ألف
فارس ثم هجم بالرجالان والفرسان على أفريقية ودارت

بينه وبين رجال المعز ربح الحرب فهزم الاندلسيون قبائل
صنهاجة وكتامة ، وكان يتألف منها السواد الأعظم من
جيش الافارقة - واقتفوا آثارهم حتى بلغوا ضواحي تونس
وهي غنية بتجارها الواسعة يسكنها كثير من تجار اليهود
الاغنياء فحصروها برأ وبحراً والحو في الحصر فلما رأى
أهلها أن الخطر محقق بهم عرضوا أن يسلموهم المدينة
وقدموا مبالغاً كبيراً من المال الى الحاجب ابن شهيد ،
وقدموا اليه كذلك أنسجة من كل نوع وطرفاً من الحلى
وزهبا وحجارة كريمة وملابس من الصوف والحرير
وأسلحة وخيلا وعددا عظيما من الارقاء ، ثم غنم عدا ذلك
سفن الميناء واثقالها وضمها الي سفنه وكررا جعاً الى الاندلس

ومن سذنتهم التي مضوا عليها وجرت عادتهم بها ان
يحتفلوا بالاسطول عند رجوعه ظافرا من حرب ، فتقوم
الاساطيل بالالعاب وحركات بمرأى من عظماء الدولة ومسمع ،
كانها في حرب مع الاعداء ، فانفق في اليوم الذي وصلنا

فيه الى المرية أن أب الاسطول الاندلسي رافعا أعلام النصر
في هذه الواقعة ، فأمر امير البحر عبد الرحمن بن رماحس
بان تقوم الاساطيل بالعابها ، فما كان منا إلا أن بادرننا الى
إمتاع أنفسنا بمشاهدة هذه الألعاب صلبة الامير ،
فذهبننا الى الميناء - ميناء المرية - فوجدنا ثمت في انتظارنا
مركبا كبيرا كأنه رَضْنُوِي أو ثبير ، أو الامل الكبير ،
فدعينا إلى النزول فيه ، ثم أخذ الامير ابن رماحس في أن
يرينا ما في هذا المركب من بروج وقلاع ومناظر وتوايت
ومن منجنيقات ومكاحل بارود ونفط - ومن نوتية ، ومن
مقاتله وأساحة وهلم مما قضينا منه عجبا - وهذا المركب
نوع من الانواع التي يتألف منها الاسطول يسمى
« الشوانى » الواحد منه « شونه » وبعد ذلك أخذ هذا
المركب يسير بنا الهويننا في اختيال ، مترجعا ذات اليمين
وذات الشمال . كأنه عروس مجلوة يرفرف عليها روح الجمال
والجلال ، وبعد أن سار بنا في البحر شيئا وقف حيث نشاهد

حركات الاسطول والأعيبه ، وكان الشاطيء ساعته قد
مُغصّ بالنظارة من كل صنف من أصناف الناس ، والزوارق
قد انتثرت على متن البحر من جميع النواحي ، وفيها ما لا يعلم
عديدهم الا الله من الاندلسيين والاندلسيات ، كي يشاهدوا
حركات الاسطول - فكان لذلك منظر تحسر دونه الظنون
وتراجع دون ادراكه الاوهام - منظر يهر رُؤاؤه الفكر ،
وُيشيع الروعة في الصدر ، وينتقل من هذا العالم الى عالم
آخر كانه اخلود

مجال اسود وملهى سفين فيا طيب لهو ويا منظر
ويا حسن دنيا ويا عز ملك يسوسهما السائس الاكبر
ثم بصرنا بعد ذلك بالاساطيل على اختلاف ضروبها ،
وقد أخذت بصورة شيطانية في ألعيبها ، فاذا رأيت ثم
رأيت كنانين^(١) غير أنها تمرق مروق السهام ، ورواكد^(٢)
هى مدائن ، بيد أنها تمر مرّ السحاب غير الجّهام^(٣)

(١) جمع كنانة جمعة السهام (٢) ثوابت (٣) السحاب

الجّهام هو الذى لاماء فيه

واطيئاراً إلا أنها جوارح ، لا تصيد إلا الارواح ، وافراسا
 فى سرعة البرق اللامع ، سوى أنها ذات دُسر وألواح
 تتخاذل الالحاظُ فى ادراكها

ويحار فيها الناظر المتأمل
 فكأنها فى اللطف فهم ثاقب
 وكأنها فى الحسن حظ مقبل

فيا للجوارى المنشآت وحسبها
 طوائر بين الماء والجو عوما
 اذا نشرت فى الجو اجنحة لها
 رأيت به روضا ونورا مكما

ذات هُذب من المجاذيف حاك
 هُذبَ باكٍ لدمعه إسعادُ
 حم فوقها من البيض نارُ
 كُلٌّ مَنْ أرسلت عليه رَمادُ

ملاً السكاة ظهورها وبطونها
فأتت كما يأتي السحاب المغدق
عجبا لها ما رخت قبل عيانها
أن يحمل الأسد الضواري زورق

زأرت زئير الأسد وهي صوامت
وزحفن زحف مواكب في زورق

ترمي بروج ان ظهرت لعدو مخرقة بطنا
وبنفط ابيض تحسبه ماء وبه تذكي السكنا (١)

وما زالت الاساطيل تلعب كأنها في سُوح القتال ،

(١) البيتان من ابيات لابن حمديس يمدح بها ابا يحيى الحسن

بن علي بن يحيى يقول فيها

انشأت شواني طائرة وبنيت على ماه مدنا
بيروج قتال تحسبها في شم شواهقها قننا

من لدن ذرّ قرنُ الشمس الى أن جاء وقت الزوال

وهنا يجمل بنا أن نجمل لك القول على أنواع السفن
التي يتألف منها الاسطول الاندلسي وُعددها وآلاتها^(١)
فمن تلك الاساطيل نوع يقال له « الشواني » جمع الشونة أو
الشيّني كما مر بك آنفاً - وهي اجفان حربية كبيرة تقام فيها
الابراج والقلاع للدفاع والهجوم - وابرأجها ذات طبقات
مربعة - فالطبقة العليا منها تقف فيها الجنود المسلحة بالقسيّ

ترمي ببروج - البيتتين -

وبعدها

ضمن التوفيق لها ظفرا من هلك عداتك ماضمنا
وقوله مخرقة هكذا قرأناها بالخاء المعجمة ولعل الصواب
مخرقة بالخاء اى ان ظهرت هذه البروج لعدو في حال احراقها
قتل في التو واللحظة لان معني بطنا اصيب في بطنه يريد مقتله
والسكن النار وتذكي تشعل

(١) راجعنا فيما راجعناه في ذلك رسالة لصديقنا الفاضل

عبد الفتاح افندي عباده

والسهام - وفي الطبقة السفلى الملاحون الذين يجذفون بنحو من مائة مجذاف ، ويتراوح ما تحمله الشونة من المقاتلة ما بين المائة والخمسين وبين المائتين - وتجهز الشوانى وقت الحرب بالسلاح والنفطية والازودة بـلـة الجنود البحرية . ومن أنواع الاصطول نوع يعرف «بالبوارج» جمع البارجة وهو اكبر من الشوانى - ومثله نوع يقال له المسطحات - ومن هذه الاساطيل نوع يقال له «الحراقات» جمع الحارقة وهى مراكب حربية كبيرة قرابة الشوانى بيدان هذه تماز عن تلك بالمنجنيمات وتلك عن هذه بالقلاع ، فتراهم يحملون فى الحارقة مكاحل البارود والعرادات والمنجنيمات^(١)

(١) مكاحل البارود هى المدافع التى يرمى عنها بالنفط وحالها تنوع فبعض يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر وبعض يرمى عنه ببندق من حديد زنة عشرة ارطال وزنة مائة والعرادات جمع عرادة وهى آلة تصغر عن المنجنيق ترمى بالحجارة او السهام المرمى البعيد وبقدر النفط او العقارب وما اليها . والمنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه

يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء - وهم يعملون الحراسة
 في صورة الاسد وفي صورة الفيل وفي صورة العقاب وفي
 صورة الحية وفي صورة الفرس كتملك الحراقات التي كانت
 للامين بن رشيد ، والتي يقول فيها الحسن بن هانيء
 سخر الله للامين مطايا

لم تسخر لصاحب المحراب
 فاذا ماركبه سرف برأ
 سار في الماء راكباً ليث غاب
 أسداً باسطاً ذراعيه يعدو
 اهرت الشدق كالح الانياب
 لا يعانیه بالاجسام ولا السو
 ط ولا غمز رجله في الركاب

ثقل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يوضع فيها الحجر
 يجذب حتى ترتفع اسافله على اعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي
 فيه الكفة فيخرج الحجر او النفط منه فايصيب شيئاً الا عصف
 به عصفاً

عجب الناس إذ رأوه على صو
رة ليث يمر مر السحاب
الى أن قال يصف هذه المطايا
تستبق الطير في السماء اذا ما
استعجلوها بجيئة وذهب
ذات سور ومنسر وجناحين
م تشق العباب بعد العباب
وكحراقة طاهر بن الحسين التي يقول فيها بعض الشعراء
عجبت لحراقة ابن الحسين
م - لا غرقت - كيف لا تغرق
وبحران من فوقها واحد
وآخر من تحتها مطبق
وأعجب من ذلك أعوادها
وقد مسها كيف لا تورق

أما الطرائد^(١) فهي السفن التي تحمل الخيل للاسطول،
 وأكثر ما يكون فيها اربعمون فرساً - والقوافير^(٢) - فهي
 السفن الكبيرة التي تحمل الزاد والسكرع والمتاع - والفلائك
 والقوارب والشنديات^(٣) فهي من توابع الاسطول كالطرائد
 والقوافير

أما عدد الاساطيل وآلاتها ومعداتا واسلحتها فهي
 الرماح والعصي والتراس والزرد والدرق والخوذ والمنجنيقات
 والعرادات

وقد رأيت الاندلسيين يستعملون في حروبهم البحرية
 النار اليونانية، وهي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات

(١) جمع طريدة وقد اخذ الاسبانيون هذا الاسم فقالوا
 Tariddo وقال الطليان Tartana وقال الفرنسيون Tartan
 (٢) جمع قرقور وهي المسماة اليوم كراكة أخذناها من
 الافرنج بعد ان اخذوها من (٣) اخذها الروس فقالوا
 Schelaudo والطيان فقالوا Scialaudo والفرنسيون فقالوا
 Chaland

والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة يشدونها في مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلا أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان الملتوت بالنفط فيقع على السفن فيحرقها حرقا ، ومن غريب هذه النار انها تشتعل في الماء والهواء كالنفط - وقد رأيتهم كذلك يستظهرون بالبارود الذي يسمونه «الثلج الهندي» . - ونحن فلم نسمع بأمة من الامم اهتمت الى هذا «الثلج الهندي» قبلهم^(١) - ذلك الى معدات أخرى لا اظنهم قد سبقوا اليها ، ارايها الامير ابن رماحس في

(١) قال كوندى المستشرق الاسباني : ان المعروف أن

العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ وهم الذين نقلوه الى الاندلس ومنها اخذه الافرنج - قال : وقد استعمله العرب في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هجرية وفي محاربة الاسبانيين سنة ١٢٤٩ م واستخدمه صاحب غرناطة في حصار باجة ثم نقله عن العرب في القرن الثالث عشر روجر با كون الانكليزي وغيره من الكيماويين وأول ما استخدمه الفرنج في واقعة كريسى سنة ١٣٤٦ وانها منحة عظيمة فتحها العرب للاوربيين

الشونة التي كنا نشاهد منها حركات الاسطول ، مثل
التوايت المعلقة فوق البروج ، وهي صناديق كبيرة مفتوحة
من أعلاها ، يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون
فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في مخللة معلقة
بجانب الصندوق فيرمون العدو بها وهم يختبئون في هذه
الصناديق ، ومعهم عدا الحجارة قوارير النفط وجرار النورة
وهي مسجوق ناعم مؤلف من الكلس والزرنيخ يرمون
به الاعداء في مراكبهم فتعمى ابصارهم بغبارها وقد تلتهب
فيهم التهابا - وقد رأيتهم وهم يرمونهم ايضا بقذورات الحيات
والعقارب وبقذورات الصابون اللين كي يزلقوا أقدامهم -
ومن حيلهم التي يتخذونها وقاء لهم من اعدائهم انهم يحيطون
المراكب بالجلود أو اللبود المبلولة بالخل والماء أو الشب
والنطرون كي لا يفعل النفط فيها فعله - ومن حيلهم انهم
يجعلون في مقدم المركب هناة كالفأس يسمونها اللجام ،
وهي حديدة طويلة محددة الرأس وأسفلها مجوف كسنان
الرمح تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم

المركب يقال لها «الاسطام» فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز في مقدم المركب فيقطعون مركب العدو به فلا يلبث حتى ينخرق فينصب فيه الماء فيغرق - ومن تلك الحيل انهم اذا جن الليل لا يشعلون في مراكبهم ناراً ولا يتركون فيها ديكاً وقد يسدلون على المراكب قلوغاً زرقاء ، فلا يرى العدو مراكبهم التي يشبه لون الماء أو السماء : فسبحان الملمهم من يشاء ما يشاء ، ويخلق ما لا تعامون لا اله غيره :

أما رئاسة الاساطيل فقد جعلوا على كل اسطول قائداً ورئيساً فالقائد يدبر أمر سلاحه وحربه ومقاتلته ، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجازيف ومعرفة مسالك البحر وطرقه بواسطة الرهنامج^(١) ويدت الابرة التي هي من مبتكراتهم ولم يسبقهم اليها سابق فيما علمنا . أما النظر في الاساطيل كلها فيرجع الى امير واحد من أعلى طبقات

(١) الرهنامج كتاب الطريق وهو الكتاب الذي يسلك

به الرابانية البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها

المملكة يلفبونه أمير البحر أو أمير الماء

وبعد أن أقمنا في المرية ثلاثة أيام بلياليها تحملنا منها في
ركب نخم نبيل موف على الغاية ، في الابهة والروعة والجلال ،
قاصدين الى قرطبة حضرة هذه البلاد ، وكان في طليعة
الركب أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، إذ أمره سيدي
الحكم بن أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر وولى عهده كما
اسلفنا أن يتلقانا في وفد من وجوه الاندلسيين ويحجى معنا
الى قرطبة مبالغة من الامير حفظه الله في الاحتفاء بنا
وبأبي عيسى القالى البغدادى وبأبي عبد الله الصقلى الفيلسوف
الذى وصل الى المرية قبل انفصالنا عنها ، وكان فى الركب
من الاندلسيين الرمادى الشاعر وأبو بكر بن القوطية
وأبو بكر الزيمى وكثير من أدباء الاندلس واعيانها :

وقد بهرنا وسحر اعيننا وملك علينا البابنا مارأيناها في
طريقنا من استبحار العمران في هذا القطر الاندلسى ، فقد

كنا نمر في اليوم الواحد بثلاث مدن واربعة ، وفي حينما سرنا
نرى الحوانيت - في الاودية ورؤوس الجبال - لبيع الخبز
والفواكه والخبز واللحم والحوت وما الى ذلك من ضروب
الاطعمة . وكنا نعتثر نعتراً بالجدول والانهار ، تحفها
البساتين وصنوف الزرع والنجوم والاشجار ، حتي لظننا انه
ليس في هذه البلاد صحراء مقفرة . أو ارض غامرة .

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وانهار وأشجار
ماجنه الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذا كنت اختار
لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار
أما القرى والمعاقل والحصون فانها لا تحصى كثرة ، وقراها
جميلة لتألق اهلها في اوضاعها وتبديضها لئلا تنبوا العين عنها
لاحت قراها بين خضرة أيكها
كالدر بين زبرجد مكنون

واكثر مدنها مسور من اجل الاستعداد للعدو ،
وفى مدنها لذلك مايبقى فى محاربة العدو مايربى على عشرين
سنة ، لامتناع معاقلمها ودربة اهلها على الحرب .

وكنا فى طريقنا نتذاكر الادب ونتناشد الاشعار
ونخوض فى ضروب من الحديث لاعلمنا اذا نحن اوردنا
شيئاً منها فى هذه الرسالة ، فن ذلك أن ابا على قال من كلمة
له « لما مررت بالفيروان - وأنا اعتبر من أمر به من أهل
الامصار فأجدتهم درجات فى العبارات وقلة الفهم بحسب
تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد كأن منازلهم من
العلم محاسبة ومقايسة ، فقلت إن نقص أهل الاندلس عن
مقادير ما رأيت فى افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قباهم
فسأحتاج إلى ترجمان فى هذه الاوطان ، والى كذا لما جئت
الى هنا قضيت عجباً من أهل هذا الافق الاندلسي فى
ذكائهم ^(١) » ومن ثم كنا نراه ^(٢) يتغطى عن الاندلسيين

(١) هذه الكلمة هي لابي على القالى بنصها (٢) اى القالى

عند المباحثة والمناظرة ويقول لهم « إن علمى علم رواية
وليس علم دراية ، فخذوا عني ما نقلت فلم آل لكم أن
صححت (١) » ثم فرط منه قول ذهب فيه ، إلى تفضيل
شعراء المشرق على شعراء المغرب ، فانتدب له أحد الأدباء
ممن كانوا في هذا الركب وقال « إن أهل الاندلس أشعر
الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم
من الأشجار والأنهار والطيور والكؤوس ، لا ينافيهم
أحد في هذا الشأن - أما إذا هب نسيم ، ودار كأس في
كف ظبي رخيم ، ورجم بمّ وزير (٢) وصفق للماء خرير ،
أوردت العشيّة ، وخلعت السحب أبرادها الفضية والذهبية ،
أو تبسم عن شعاع نهر ، أو تفرق بطل جفن زهر ،
أو خفق بارق - أو وصل طيف طارق ، أو وعد حبيب فزار
من الظلماء تحت جناح ، وبات مع من يهواه كالماء والراح ،
إلى أن ودع حين أقبل رائد الصباح ، أو أزهرت دوحة

(١) وهذه كذلك للقالي (٢) الزير هو اسفل اوتار

العود والذي يليه مثني والذي يليه مثلث والذي يليه بم

السماء بزهر كواكبها . أوقضت عند فيض نهر الصباح
بيض مضاربها ، فاولئك هم السابقون السابقون . الذين
لا يجارون ولا يلحقون ، وليسوا بالمفصرين في الوصف اذا
تقععت السـلاح ، وسالت خاجان الصوارم بين قضبان
الرماح ، وبنت الحرب من العجاج سماء ، وأطلعت شبه
النجوم اسنة واجرت شبه الشفق دماء ، وبالجملة فانهم في
جميع الاوصاف والتخيالات ائمة ، ومن وقف على اشعارهم
في هذا الشأن فضلهم فيه على اصناف الامة ، فقال ابو علي (١)
نعم وفي الحق ما تقول . بيد ان شعراء المشرق فضلا ان
شعرهم اصفى ديباجة ، واكثر ماء وطلاوة ، واسد مسلكا

(١) كل ما وضع على لسان ابي علي وابي عبد الله الصقلي
لا أصل تاريخي له وانما هذا الموضوع برمته هو من وضعنا وقد
زورناه تزويرا لم نسبق فيما نظن اليه ولعلنا قاربنا الحقيقة في
هذه المفاضلة بين شعر المشاركة وشعر الاندلسيين علي اننا لم نر
لاحد قبلنا كلاما في هذا المعنى وسنوفيه حقه في الكلام على
شعراء الاندلس في الرسالة الرابعة من هذه الرسائل

واوضح منهجا ، واشكل في مبناه بالشعر القديم حتى لا يكاد
يشذ عنه قيد شعرة ، وفضلا انه في الاعم الاغلب رصين
متماسك جزل قوي غير مهلهل النسيج - تراغم مع ذلك ذهبوا به
كل مذهب من القول ، وافتنوا في مناحيه ايا افتنان ،
وغاصوا على المعاني غوصا حتى بلغوا في ذلك المبالغ ، ووصلوا
الى الغاية التي لا وراءها ، وانى لا اظن ان لعل بن العباس
الرومي او بشار بن برد او ابي نواس اشباها ونظائر في هذه
البلاد ، على انى مع ذلك لست انكر على الاندلسيين ذكاءهم
وتوقدهم ، وانهم - كما رأيت وكما وصفوا الى - « عرب في العزة
والانفة وعلو الهمة وفصاحة الالسن واباء الضيم والسماحة
بما في ايديهم والنزاهة عن الخضوع والاستخذاء - هندیون
في فرط عنايتهم بالعلوم ورغبتهم فيها وضبطهم لها - بغداديون
في نظافتهم وظرفهم ورقة اخلاقهم وذكاؤهم وجودة قرائحهم
ولطافة اذهانهم ونفوذ خواطرهم - يونانيون في استنباطهم
للمياه ومعاناتهم لضروب الغراسات واختيارهم لاجناس
الفواكه وتديبرهم تركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بانواع

الخضر وصنوف الزهر - صينيون في اتقان الصنائع العملية
واحكام المهن الصورية - تركيون في معاناة الحروب
والخذق بالفروسية والبصر بالطعن والضرب «

كبرتْ حول ديارهم لما بدت
منها الشمس وليس فيها المشرق

ولو ابصروا ليلى اقرؤا بحسنها
وقالوا بأنى فى الثناء مقصر

وهنا انبعث ابو عبد الله الصقلى الفيلسوف وقال
ما تلخيصه . الذى اراه ان شعراء كل قطر من الاقطار
او جيل من الاجيال لا بد من أن يتأثروا بالمحيط الذى يحيط
بهم ، وان يصطبغ شعرهم بصبغة ما يرون ويحسون من
حولهم ، فالشاعر الجاهلى او المتبدى فى الجاهلية والاسلام
الذى لا تنفع عينه الا على صحراء مقفرة ، اوسماء ماطرة ،
او وحش كاسر ، او غزال نافر ، لم يدرى ، ولم تغذ رقة الخضر
ولم يشبع من طعام ، قد خالط الغيلان ، وانس بالجنان ،

وأوى للفقر واليراييع والطباء ، فانه حرى ان لا يقول
الا فى جنس ماهو بسبيله من وصف البيد والمهامه والطبي
والظالم والناقة والجل وما الى ذلك ، فى قول مونق مشرق
واضح الطريقة لا تعمل فيه ولا كلفة ، يوائم امزجتهم
وطبائهم ، ويلأثم المحيط الذى فيه عاشوا ، والجو الذى فيه
درجوا ، والفطرة الاولى التى فطروا عليها ، والسذاجة التى
هى من خاص صفاتهم ، وقد يكون لهم مع ذلك الحكمة
البارعة ، والكلمة الرائعة ، والمثل السائر ، والموعظة الحسنة ،
مما يبهر اعرق المتحضرين ويصيب منهم اقصي غايات
الاعجاب والاكبار ، ولكنه الوحى والالهام الذى تلهمه
الفطرة القوية النقية البريئة ، ويؤتي الطبيعة الكريمة
مايؤتي سهوار هوا ، وليس هو بنتاج العقل المسموع ولا بثمار
الملكات المكتسبة .

« وبعد » فاما المولدون وهم الذين تصح المفاضلة بينهم
وبين شعراء المغرب لانهم جميعا تحضروا وعاشوا فى رونق
النعم واعتكرو بالدنيا واعتكرت بهم فالراى عندى ان يقال

ان الشعر لفظ ومعنى فاما اللفظ فان شعراء المشرق لان
 اكثرهم جاور الاعراب وأهل البادية ولقنوا اللغة منهم
 والتصقوا بهم ونسّوا في احضانهم وغذوا بلبانهم ترى لهم
 الالفاظ المتخيرة ، والديباجة الكريمة ، والطبع المتمكن
 والسبك الجيد وكل كلام له ماء ورونق ، وترى شعرهم رصينا
 متسقا على استواء واحد لا يتدافع من جهاته ولا يتعارض
 من جوانبه ولا يجمع ولا يشتط ولا يأتبه الضعف والهلالة
 والاسترخاء من اية ناحية من نواحيه : واما المعنى فأن خولة
 شعراء المشرق الذين افتنوا في المعاني افتنانا وغاصوا عليها
 وامعنوا حتى ظفروا بكل معنى عجيب يعمر الصدر ويذكى
 الروح ويشع في ذني العقل فتنبجابه له ظلمته وتذير نواحيه
 وتنفتح مغالقه مثل بشار بن برد وأبى نواس وابن الرومي
 وهذه الطبقة فهم انما بلغوا هذه الدرجة لانهم من الموالي
 ابناء تلك الامم الحمراء الذين امترسوا بالحضارة قبل العرب
 امتراسا وعالجوها وعالجتهم وداوروا صنوفها من الصناعات
 والعلوم وما اليها وصرفوا فيها اعنة الفكر وقدحوا لها

زناد الرأي وهلم حتى أننى ذلك على كر الغداة ومراً العشي
عقولهم، وشخذ اذهانهم واذكى ارواحهم وأكسبهم ملكات
عبقريّة عجيبة، فورث ذلك منهم ابناؤهم وانحدروا مع دماءهم
وكان منهم هذا النبوع الذى نرى آثاره في السلام.

وما كاد ابو عبد الله يتم قوله تلك حتى صاح ابو بكر
ابن القوطية وقال أشيخنا شعوبى^(١)؛ فقال ابو عبد الله

(١) أى على مذهب الشعوبية والشعوبية- ويسمون انفسهم
أهل العدل والتسوية- يذهبون الى أن الناس كلهم سواء وأن ليس
شعب أفضل من شعب وأن لا فضل للعرب على غيرهم واذ أبى
العرب الا الذهاب الى أنهم أفضل من غيرهم ذهبوا هم كل مذهب
فى الطعن على العرب وتنقصوهم وألصقوا بهم كل طاب ومنقصة
ولعل هذا قد نشأ بادية ذى بدء من احتقار العرب هذه الامم
الجرأ من الاطاحم ومن اليهم اذ كان العرب هم السادة وذوى المملكة
والسلطان وكانت هذه الامم عبيداً لهم وموالى أو مستظلين
برأيهم مستعمرين لهم، ونحن نورد هنا نبذاً من مفاخرات الفريقين
ومحاوراتهم وتطاعنهم بعضهم على بعض لانه معنى مستلذ فضلاً أنه
ليس يخلو من فائدة. فن قول العرب أو المتعصبين للعرب على

المعجم - ويراد بالمعجم كل من ليس بعربي - فمن قولهم : لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا احسان الا استنقاذنا له من الكفر واخراجنا له من دار الشرك الى دار الايمان كما في الاثر ان قوما يقادون الى حظوظهم بالسواجير « جمع ساجور وهو القلادة أو الخشبة التي توضع في عنق الكلب » وكذلك جاء في الاثر : عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة في السلاسل : على أن تعرضنا للقتل فيهم ، فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك فالله امرنا بقتالكم وفرض علينا جهادكم ورجبنا في مكاتبكم « المكاتبه أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على مال ينجمه » يقسطه عليه ويكتب عليه انه اذا أدى نجومه « اقساطه » في كل نجم كذا وكذا فهو حر فاذا أدى جميع ما كاتبه عليه فقد عتق وولاه لمولاه الذي كاتبه وذلك أن مولاه سوغه كسبه الذي هو في الاصل مؤلاه « وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلا من الموالى يصلى به فقالوا له في ذلك فقال انما أردت أن اتواضع لله بالصلاة خلفه . وكان نافع هذا اذا مرت به جنازة قال من هذا فاذا قالوا قرشي قال واقوماه واذا قالوا عربي قال وابلدناه واذا قالوا مولى قال هو مال الله يأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء . . وكانوا لا يكتنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاعماء واللقاب ولا يدعونهم يصلون

على الجنائز اذا حضر أحد من العرب وان كان الذي يحضر غريباً .
وروي أن عامر بن عبد القيس في نسكه وزهده وتقشفه وعبادته
كلمه حمران مولى عثمان بن عفان عند عبدالله بن عامر صاحب العراق
في تشنيع عامر على عثمان وطعنه عليه فأذكر ذلك فقال له حمران
لا كثر الله فينا مثلك فقال له عامر بل كثر الله فينا مثلك فقبل
له أيدعو عليك وتدعو له قال نعم يكسحون طرقنا ويخرزون
خفافنا ويحوكون ثيابنا ، فاستوى ابن عامر جالساً وكان متكئاً فقال
ما كنت اظنك تعرف هذا الباب لفضلك وزهادتك فقال ليس
كل ما ظننت اني لأعرفه لأعرفه . وروي أذا عرابياً من بني العنبر
دخل على سوار القاضى فقال أن أبى مات وتركنى وأخاً لى وخط
خطين ثم قال وهجيناً ثم خط خطأ ناحية فكيف يقسم المال فقال
له سوار ههنا وارث غيركم قال لا قال فالمال بينكم أثلاثا قال
ما أحسبك فهمت غنى ، انه تركنى وأخى وهجيناً فكيف يأخذ
الهجين كما أخذ أنا وكما يأخذ أخى قال أجل فغضب الاعرابى .
ومن قول الشعوبية : اخبرونا ان قالت لكم المعجم هل يعدون
الفخر كله أن يكون ملكاً أو نبوة فانزعتهم انه ملك قالت لكم
وان لنا ملوك الارض كلها من الفراعنة والماردة والمالقة والاكاسرة
والقياصرة وهل ينبغي لاحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي

سخرت له الانس والجن والطيور والرياح وانما هو رجل منا، أم هل كان لاحد مثل ملك الاسكندر الذي ملك الارض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها، وكيف ومنا ملوك الهند، وان زعمتم انه لا يكون للفخر الا بذبوة فان منا الانبياء والمرسلين فاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وانما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بمد هذا ماشئتم وادعوا . ولم تزل للامم كلها من الأتاجم في كل شق من الارض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الادوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهي أبداع صنعة وارب الشطرنج وهي أشرف لعبة ومثل فلسفة الروم وما اليها وما كان للعرب ملك يجمع سوادها ويضم قواصمها ويقمع ظالمها وينهي سفيهاها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة الا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم وذلك أن للروم اشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض وكذلك الخطابة فانها شيء في جميع الامم وبكل الاجيال اليه أعظم الحاجة حتى ان الزنج - مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال الحد وغازط الحس وفساد المزاج - لتطيل الخطب وتنفوق في ذلك

جميع المعجم وان كانت معانيها أجنى وأغاظ وألفاظها أخطأ وأجهل. وقد علمنا أن اخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس وأعذبهم كلاماً وأسهلهم مخرجاً وأحسنهم أداءً وأشدهم فيه تحسكاً أهل مرو. ومن أحب أن يبلغ في صناعة البلاغة ويعرف الغريب ويتبحر في اللغة فليقرأ كتاب كاروند ومن احتاج الى العقل والأدب والعلم بالمراتب والعبر والمثلثات والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة فليتنظر الى سير الملوك، فهذه الفرس ورسائلها وخطبها والفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخطبها وعللها وحكمها، وهذه كتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة والخطأ من الصواب، وهذه كتب الهند في حكمها واورارها وسيرها وعللها فنقرأ هذه الكتب عرف غور تلك المقول وغرائب تلك الحكم وعرف أين البيان والبلاغة وأين تكاملت تلك الصناعة

قال الجاحظ ينضح عن العرب : أما الهند فان لهم معاني مدونة وكتب مجلدة لا تضاف الى رجل معروف ولا الى عالم موصوف وانما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الارض سائرة مذكورة

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق . وكان صاحب المنطق نفسه

بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتميز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وبخصائصه . وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ، ولم يذكره بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة وفي الفرس خطباء الا أن كل كلام للفرس وكل معنى للمعجم فانما هو عن طول فـكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكير ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتي اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم

وكل شيء للعرب فانما هو بدية وارتجال ، وكأنه الهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا اجالة فـكرة ، ولا استعانة وانما هو أن يصرف وهمه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، أو حين أن يمتح على رأس بر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المفارقة والمناقلة ، أو عند صراع ، أو في حرب ، فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الالفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدا من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكفون . وكان الكلام الجيد عندهم أظهوراً أكثر وهم عليه أقدر وأقهر . وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من

البيان أرفع . وخطباؤهم أو جز ، والكلام عليهم أسهل . وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا الى تحفظ أو يحتاجوا الى تدارس . وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله فلم يحفظوا الا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بمقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب . وان شيئاً الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه الا من أحاط بقطر السحاب ، وعدد التراب ، وهو الله الذى يحيط بما كان ، والعالم بما سيكون

ونحن أبقاك الله اذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والارجاز ، ومن المنثور والاسجاع ؛ ومن المزدوج ومالا يزدوج ؛ فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة ، والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك الا فى اليسير والنبد القليل . ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التى فى أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، اذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ويصنعوا مثل تلك السير . وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الاعراب الخلف ، ومعدن

إني وإن كنت لا أرى لعربي فضلا على عجمي إلا بالتقوي
وإن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بأبائهم ولا بأحسابهم
ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبعد همهم ،
فمن كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من

الفصاحة التامة ، ووقفته على شاعر مفاق ، أو خطيب مصقع ،
علم أن الذي قلت هو الحق ، وأبصر الشاعد عياناً ، فهذا فرق
ما بيننا وبينهم

فتفهم عن فهمك الله ما أنا قائل في هذا . واعلم أنك لم تر
قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدي على دينه ، ولا
أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نصباً ، ولا أقل غناً ، من أهل
هذه النحلة . وقد شفي الصدور منهم طول جثوم الحسد على
أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغلبان تلك المراحل
الفائرة ؛ وتسمر تلك النيران المضطربة . ولو عرفوا أخلاق كل
ملة ؛ وزى كل لغة ، وعلمهم في اختلاف أشاراتهم وآلاتهم ،
وشمائلم وهياتهم ، وما علة كل شيء من ذلك ، ولم اختلقوه ولم
تكافوه ، لأراحوا أنفسهم ، وتخففت مؤنتهم على من خالطهم .
أهملخصاً من العقد والبيان والتبيين . ويظهر أن هؤلاء الشعوبية
نجمت أوائل الدولة العباسية وإن كانت جرثومتها أقدم من ذلك .

بنى هاشم في ذؤابتها ، ومن أمية في ارومتها ، وقيس في
 اشرف بطن منها . ومن ثم يقول الله جل شأنه ان اكرمكم
 عند الله اتقاكم ، ويقول رسول الله في خطبة الوداع : أيها الناس
 إن الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء - كلكم
 لآدم وادم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى
 فاني مع هذا أقول ما قاله ابن المقفع - وقد سأل جماعة من
 أشرف العرب - أي الامم أعقل ، فنظر بعضهم إلى بعض
 وقالوا لعله أراد أصله من فارس - فقالوا فارس ، فقال ليسوا
 بذلك ، انهم ملوكوا كثيرًا من الارض ، ووجدوا عظيمًا من
 الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عقد الامر
 فما استنبطوا شيئًا بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكمكم في
 نفوسهم ، قالوا فالروم : قال اصحاب صنعة قالوا فالصين قال
 اصحاب طرفة . قالوا الهند ، قال اصحاب فلسفة ، قالوا السودان
 قال شر خلق الله ، قالوا الخزر قال بقر سائمة ، قالوا فقل قال
 العرب . فضحكوا - فقال « أما اني ما اردت موافقتكم
 ولكن اذفاني حظي من النسبة فلن يفوتني حظي من المعرفة

ان العرب حكمت على غير مثال مَثَل لها ، ولا آثار اثرت
اصحاب ابل وغنم ، وسكان شَعَر وأدَم ، يجود اِحدُهم بقوة
ويتفضل بجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ،
ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ،
ويحسن ما يشاء فيحسن ، ويقبح ما يشاء فيقبح ، أدَّبَهم
نفوسهم ، ورفعتهم همهم ، واعلمتهم قلوبهم وألسنتهم ، فلم
يزل حياء الله فيهم وحبائهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر
وبلغ بهم اشرف الدكر ، وختم لهم بملـكهم الدنيا على الدهر
وافتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، على الخير فيهم ولهم
فقال ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة
للمتقين ، فمن وضع حقهم خسر ، ومن انكر فضلهم خسر
ودفع الحق باللسان ، اكبت للجنان »

بيد أن العرب لم يكن لهم باديء ذي بدء دراية
بالحرف والصناعات ، وبالعلوم وتعلمها الذي هو في عداد
الصناعات ، وذلك لمكانهم من البداوة ، ورسوخ اقدامهم
فيها ، ومن ثم كانت الشريعة الاسلامية - اذ كانت القوم

أكثرهم أميين - تتناقل في صدورهم - وجري الأمر على ذلك أزمان الصحابة والتابعين - فلما بعد النقل من دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التفسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة، وفسد مع ذلك اللسان، فاحتيج إلى وضع القوانين النجوية، وصارت العلوم الإسلامية ذات ملاكات محتاجة إلى التعليم فندرجت في جملة الصنائع، وهز معلوم أن الصنائع من منتحل الحضرة، والعرب أبعد الناس عنها والحضر لذلك المههم العجم أو من في معانهم من الموالي، فكان صاحب صناعة النحو سيديويه ثم الفارسي من بعده ثم الزجاج، وكلهم عجم في انسابهم، وكذا حملة الحديث وعلماء أصول الفقه وعلماء الكلام والمفسرون، وأكثر فقهاء الأمصار مثل الحسن بن أبي الحسن ومحمد بن سيرين فقيهي البصرة وعطاء بن أبي رباح ومجاهد وسعيد بن جبيرة وسليمان بن يسار فقهاء مكة وزيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح فقهاء المدينة وربيعة الرأي وابن أبي الزناد فقهاء

قبا و طاس و ابن منبه فقيه اليمن و عطاء بن عبد الله
 فقيه خراسان و مكحول فقيه الشام و الحكم بن عتيبة
 و عمار بن ابي سليمان فقيه الكوفة و هلم ، و بالجملة لم
 يتم بحفظ العلم و تدوينه الا الاعاجم و ظهر بذلك مصداق
 قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم با كفاف السماء لزاله
 قوم من أهل فارس ، و اما العرب الذين ادركوا هذه
 الحضارة و سوقها و خرجوا اليها عن البدوة فقد شغلهم
 الرئاسة في الدولة و ما دفعوا اليه من القيام بالملك عن القيام
 بالعلم و النظر فيها ، فانهم أهل الدولة و حاميتها و اولو سياستها
 مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم بما صار من جملة
 الصنائع ، و الرؤساء ابداً يستنكفون من الصنائع و المهن
 و ما يجري اليها ، و دفعوا ذلك إلي من قام به من العجم و المولدين
 فكان امتراس العجم من القديم القديم بالحضارة و ما
 تستتبعه من العلوم و الصنائع سبباً في كيسهم و فطنتهم
 و بناء عقولهم و رجحان احلامهم و مران ملكتهم على

الاستنباط والتخريج والتماس الحيل وتوليد المعاني ، ومن ثم كان شعر الموالى منمازا عن شعر العرب الافحاح باستفتاح اغلاق المعاني الدقيقة العبقريات والافتنان فيها وتلوينها بكل لون ، وهالك شعر بشار وأبي نواس ومروان بن ابى حفصة وابن الرومى ومن اليهم من الشعراء الموالى تر الشاهد الصدق لما اقول ، وعرب الاندلس منذ فتحهم هذه البلاد إلى وقتنا هذا لا تزال نزعتهم عربية فى كل شيء حتى فى شعرهم إلا ما اكتسبتهم إياه طبيعة بلادهم وخصوبتها ، فمن ثم كان فرق ما بين شعرهم وشعر المشاركة فى الجملة

وبعد أن اتم ابو عبد الله كلامه افضى بنا الحديث إلى ذكر الغزال الشاعر الاندلسى الظريف - وملحه ونوادره وهذا الغزال - كما أخبرنا ابن القوطية - هو يحيى بن حكم البكرى الجياني الملقب بالغزال الجمال ، وقد كان فى المائة الثالثة من بنى بكر بن وائل ، وكان حكيمًا شاعرًا عرافًا ، وكان آية فى الظرف وخفة الروح ، وجهه الامير عبد الله بن الحكم

المرواني إلى ملك الروم فأعجبه حديثه وخف على قلبه وطلب منه أن يناديه فتأبى ذلك واعتذر عنه بتحريم الخمر ، وكان يوماً جالسا معه وإذا بـزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهي كالشمس الطالعة حسناً فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها وجعل الملك يحدّثه وهو لاه عن حديثه ، فانكر ذلك عليه وأمر الترجان بسؤاله ، فقال له عرفه انى قد بهرني من حسن الملكة ما قطعنى عن حديثه فانى لم أرق مثلها وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته إلى الحور العين فلما ذكر الترجان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله وأمرت للترجان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان وتجشم المسكروه فيه مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجان عرفها أن فيه اكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زُبر قوى واشتد وغلظ ، وما دام لا يفعل به ذلك فانه يبقى رقيقاً ضعيفاً ، فضحكت واستظرفته . ومن رادره أنه أرسل مرة سفيراً إلى بلاد المجوس « اسوج نروج » وقد قارب الخمسين ، وقد وخطه الشيب ، ولىكنه

كان مجتمع الأشد فسألته زوجة الملك يوماً عن سنده فقال
مداعباً لها عشرون، فقالت وما هذا الشيب فقال وماتنكرين
من هذا، ألم ترى قط مهرأ ينتج وهو أشهب، فأعجبت
بقوله فقال في ذلك - واسم الملكة تود -

كلفتَ يا قلبي هوي متعباً

غالبت منه الضيفم الاغلباً

أنى تعلقت مجوسية

تأبى لشمس الحسن أن تغرباً

اقصى بلاد الله في حيث لا

يلفى إليه ذاهب مذهباً

ياتود ياورد الشباب الذي

تطلع من ازرارها الكوكبا

يابأبي الشخص الذى لا ارى

احلى على قلبى ولا اعذباً

ان قلت يوما ان عيني رأت

مشبهه لم اعد ان اكذباً

قلت ارى فوديه قد نورا
دعابة توجب ان ادعيا
قلت لها ما باله انه
قد ينتج المهر كذا اشهما
فاستضحكت عجباً بقولى لها
وانما قلت لكي تعجبا
ولما فهمها الترجمان شعر الغزال ضحككت وامرته
بالخضاب فغدا عليها وقد اختضب وقال
بكرت تحسن لى سواد خضابي
فكان ذاك اعادني اشبابي
ما الشيب عندي والخضاب لواصف
الا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا
فيصير ما استترت به لذهاب
لاتنكرى وضح المشيب فانما
هو زهرة الافهام والالباب

فلدىّ ما تهوين من زهر الصبى
وطـلاوة الاخلاق والآداب
ومن شعر الغزال المئين اللين الذى يرتفع له حجاب
السمع ، ويوطأ له مهاد الطبع كما يقولون قوله
قالت أحبك قلت كاذبة
غُرِّى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست اقبله
الشيخ ليس يحبه أحد
سيان قولك ذا وقولك
م أن الريح نعقد ما فتنعقد
اوان تقولى النار باردة
اوان تقولى الماء يتقد
وقوله
لا ومن اعمل المطايا اليه
كل من يرتجى اليه نصيباً

ما أرى ههنا من الناس إلا

ثعلباً يطلب الدجاج وذيباً

أو شبيهاً بالقط ألقى بعينه

ه إلى فارة يريد الوثوبا

وحدثنا أبو بكر بن القوطية قال، كان عباس بن ناصح

الثقفي قاضى الجزيرة الخضراء يغدو على قرطبة ويأخذ عنه

ادباؤها فرت بهم يوماً قصيدته التى اولها

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدم

إذ المرء لم يعدم تقي الله والكرم

حتى مر بهم قوله

تجاف عن الدنيا فما لمعجز

ولا عاجز إلا الذى خط بالقلم

وكان الغزال إذ ذاك فى الحلقة، وكان حدثاً نظماً متأدياً

متوقداً القريحة فقال : أيها الشيخ وما الذى يصنع مفعول مع

فاعل، فقال كيف تقول، فقال كنت أقول فليس لعاجز ولا

حازم، فقال له عباس والله يابنى لقد طلبها عمك فما وجدها .

« تمت هذه الرسالة »

وقد كتبت في قرطبة بقصر سيدى الحكيم ولى عهد
المسامين ، وابن مولانا عبد الرحمن الناصر أمير
المؤمنين ، وذلك في شهر اغشت الرومى سنة
ست وخمسين وتسعمائة ، الموافقة سنة
خمس واربعين وثلثمائة هجرية



« تمت هذه الرسالة »

وقد كتبت في قرطبة بقصر سيدى الحكيم ولى عهد
المسامين ، وابن مولانا عبد الرحمن الناصر أمير
المؤمنين ، وذلك في شهر اغشت الرومى سنة
ست وخمسين وتسعمائة ، الموافقة سنة
خمس واربعين وثلثمائة هجرية



